الكوثر

د. عبد المجيد الويس

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الفصحاء والبلغاء، أفصح من نطق بالضاد سيدنا محمد و على إله، و صحبه، و من دعا بدعوته، و اهتدى بهديه إلى يوم الدين ... يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك .. أما بعد :

سورة الكوثر : هي أقصر سورة من سور القرآن الكريم ، آياتها ثلاث آيات فقط ، و كلماتها عشر كلمات فحسب ، غير أن هذه الآيات الثلاث و الكلمات العشر تنطوي على معاني عظيمة ، جليلة ، كبيرة ، و فيها من الخير ما لا حد له و لا طرف ...

وقد أبدع الله (ﷻ) فيها إبداعا عجيباً ، ووضع فيها من الأسرار ما يعطي لكل باحث فيها شيئاً منه ، فيعود فرحاً جذلاناً بما اكتشف من كنز ثمين ، و لهذا كثر المفسرون و الباحثون و المنقبون ، و تعددت الآراء و اختلفت ، و لكن الهوى أحياناً لعب لعبته فأفسد ، و أفقد ذاك المفسر قيمة ما وجد ، و تطرف بعض المفسرين أحياناً فقولوا القرآن ما لم يقل ، و أساؤوا إلى الناس من حيث لم يرد الله ذلك ، و لا رسوله ، و لا المؤمنون ، و لهذا وجدتني أبحث فيها منذ زمن ، و أجمع المادة العلمية ، و أنتظر الفرصة و الظرف ، و الحمد لله الذي أعان و هيأ الأسباب ، فبدأت دراستها بعد التوكل على الله ، بهذه المقدمة الموجزة ، و تمهيد وضعت فيه تصوري ورؤيتي للمنهج الذي يحسن لدارس القرآن أن يتبعه في دراسته الحديثة ، وقسمت الدراسة إلى قسمين :

القسم الأول : الدراسة التفسيرية ، و فيها نقلت أراء كل المفسرين الذين وصلت يدي إلى تفاسيرهم ، ثم وقفت على بعض النقاط التي وجدت أنها تحتاج إلى الوقوف عليها ، ومناقشتها ، و إبداء الرأي فيها .

القسم الثاني : الدراسة التحليلية و التأويلية ، وفيها وقفت على النص القرآني نفسه ، فدرسته دراسة تحليلية (نحوية ، صرفية ، صوتية ، دلالية) ثم حاولت أن أجتهد في تأويل هذه الآيات بما آتاني الله من علم – على قلته – و أبديت فيها رأيا أسأل الله أن يكون سديدا ، وبذلت فيها أقصى ما أستطيع من جهد ، راجياً الله أن يغفر لي إن أخطأت ، و أن يثيبني إن أحسنت وأصبت ، فغاية طلبي مبلغ رضاه عني ، وغاية رجائي منه أن يوفقني ، و يعينني على المزيد ، ففي النفس حاجات إليه كثيرة ، و لكن العوارض تعترض ، و شياطين الأنس و الجن تقف لنا بالمرصاد ، و نحن معهم في معارك مستمرة ، ينالون منا و ننال منهم ، وأحسب أن هذا البحث هو أحد النقاط المهمة التي أسجلها عليهم، و التي تقربنا إلى النصر خطوة أخرى، سلاحنا إيماننا بالله، و سندنا القرآن

الكريم، يشجعنا كل المؤمنين المخلصين الشرفاء من أبناء هذه الأمة العظيمة المجيدة.

التمهيد

الله سبحانه و تعالى عندما أرسل الرسل ، أنزل لهم كتباً و أعطاهم معجزات معروفة ، موسى عليه السلام تسع أبات ، و عيسى عليه السلام إشفاء الأكمه و الأبرص و إحياء الموتى ، و لكن آياتهم شيء ، و كتبهم شيء آخر ، والإعجاز عندهم في الخوارق ، أما الكتب فهي آيات محكمات ، فيها قوانين ثابتة لا تزيد و لا تنقص و الكون كله يتكون من محكم و متشابه ، فالمحكم : كل ما هو مستقر و ثابت ، و لم يعد للعقل البشري فيه أي عمل من زيادة أو نقصان (١+١ = ٢) و هذا أمر يعلم و لا يعرف، و المتشابه هو ما يخضع للتجارب و يكتشف شيئاً فشيئاً، وهذا يعرف معرفة ولا يعلم علماً، فالكهرباء مثلاً كانت موجودة منذ الأزل و لكن الله لم يأذن باكتشافها إلا مؤخراً، و لم يتم اكتشافها إلا بالتجارب ، فهذه معرفة ، فكل ما هو ثابت علم وكل ما هو متطور معرفة كما يقول الدكتور أحمد الكبيسي [1] و لما كان هذا القرآن الكريم ترجمان الكون ، وحامل أسراره ، و صاحبه حتى آخر الزمان ، فقد جمع فيه الله ﷻ المحكم و المتشابه يقول تعالى : (منه آيات محكمات هن أم الكتاب و أخر متشابهات) آل عمران (٧)، و المحكم يفسر ، أي يعلم علماً (و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة) البقرة (٤٣) أية محكمة تعلم علما عن رسول الله ﷺ ، في الصلاة قال : (صلوا كما رأيتموني أصلي) ، و في الحج قال : (خذوا عني مناسككم) ... الخ، وهذا هو التفسير، أي ما يختص بالآيات المحكمات أو الأحكام الشرعية و القوانين الثابتة التي لا تتغير على مر الزمان. أما المتشابه : فهو ما يؤول تأويلا ، و يستخرج منه معنىً أوليا ، و ثانياً ، و ثالثاً ، ورابعاً ، ويخضع للبحث و التجربة إلى آخر الدهر ، و يعرف معرفة و لا يعلم علماً ، هذا هو المتشابه وهذا هو التأويل (هذا تأويل رؤياي من قبل) يوسف (١٠٠) بعد أربعين عاما ، العلم يفسر و المتشابه يؤول ، انظر إلى قوله تعالى (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) القيمة (٤) أولها العرب في القديم بحسب معارف زمانهم بشكل مختلف عما نحن عليه الآن ، لأن المعارف اختلفت و تطورت و تغيرت (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) النمل (٩٣) ، إن القرآن الكريم هو المعجزة الوحيدة من معجزات الأنبياء التي شاء الله أن تكون شاهدة على الناس إلى يوم القيامة ، وفي كل جيل من الأجيال يجد الناس فيه من المعجزات ما يثبت صحة و صدق ما جاء فيه و على كل جيل أن يكتشف المعجزة الجديدة التي تبرهن على عظمة هذا الكون و هذا الكتاب .

[1] من محاضرات الدكتور أحمد الكبيسي التلفازية .

كان المفسرون في حيرة كبيرة من أمرهم في تأويل قوله تعالى : (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر و لا الليل سابق النهار) يسن (٤٠) ، فالشمس يقابلها الليل ، و القمر يقابله النهار ، و لا يصح ذلك كانوا يعتقدون إن الشمس و القمر على خط واحد وفي سباق مستمر و أحدهما يطرد الآخر ، أما اليوم فالأمر تغير كثيراً .

يفسر الرازي قوله تعالى (و إذا الكواكب انتثرت) الانفطار (٢) بقوله : الكواكب و النجوم قناديل معلقة في السماء ، يمسك بها ملائكة ، فإذا قامت القيامة مات الملائكة ، فسقطت هذه الكواكب و النجوم على الأرض . هو يراها من مكانه على الأرض كالقناديل فقال ذلك ، و لو علم أن بعض الكواكب و النجوم أكبر من الأرض بأضعاف مضاعفة لما قال ذلك قطعاً و كلامه لا ينقص من قيمة تأويله و لا يقلل من قيمة جهده .

و لكن المثير و المستغرب و المرفوض هو أن يأتي اليوم و في زماننا هذا من يقول مثل ذلك الكلام ، و من هنا نقول : إن طبيعة هذا الكتاب المعجز تفرض على كل جيل أن ينظر فيه وفق معارف جيله ، معتقداً أن هذا القرآن أنزل في زمانهم ، و لزمانهم ، و ينبغي على كل جيل أن يتأمله تأملا جديداً يختلف عن تأمل الجيل السابق ، عليه أن يتأمل هذا الكتاب بمنهج جديد يختلف عن المنهج السابق .

إن تأويل المفسرين و القصاص و أهل السير ، لحادثة الزلازل بأنها انتقال الأرض من أحد قرني الثور الذي يحملها إلى القرن الآخر لم يعد مقبولاً اليوم إن لم يكن مثارا للاستغراب و الضحك .

الرازي عندما يتحدث عن قوله تعالى (و إنّ لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث و دم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين) النحل (٦٦) ، كلامه يعد معجزة في عصره أما اليوم فلا يرضى به طالب مبتدئ في الطب . هم فعلوا و عملوا و اشتغلوا و أولوا بمنهج يتماشى مع علوم عصرهم و معارفه ، و علينا نحن أيضا أن نعمل و نشتغل و نؤول بمنهج يتماشى مع علوم عصرنا و معارفه .

لقد أهاب القرآن الكريم بأولي الألباب من العلماء أن يفرغوا جهدهم في هذا الذي قلنا (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته و ليتذكر أولو الألباب) ص (٢٩) و التدبر : هو النظر في دبر الآية كما يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي في محاضراته المتلفزة ، و التدبر : هو معرفة ما تؤول إليه الآية في النهاية عبر مراحل عديدة من الفهم العام وصولا إلى الفهم الخاص كما يقول الدكتور أحمد الكبيسي .

ولو تتبعت كتب التفسير زمنياً لوجدت في كل كتاب منها جوهرة جديدة لم يهتد إليها مَنْ قبلهم ، و يبقى هذا النهج صاعداً إلى أن يرث الله الأرض و من عليها .

من أجل هذا كانت لغة القرآن– كما شاء الله لها أن تكون– معجزة ، فالكلمة فيه ضمن آيتها تعطي عطاء متجدداً إلى يوم القيامة ، و هذا نتيجة من نتائج كون الكلمة القرآنية –في الآيات المتشابهات منها خاصة تتميز بميزتين أساسيتين هما : ظاهرة الاشتراك ، و ظاهرة عدم الترادف ، و من هاتين الظاهرتين تتولد المعاني المتجددة ، و الخواطر المتلاحقة جيلاً بعد جيل ، و رجلاً بعد رجل ممن يهبهم الله فهماً خاصاً لهذا الكتاب الكريم كما قال

الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهة لأبي جحيفة رحمة الله عندما سأله إن كان عنده وحي ليس في كتاب الله فقال له : (لا و الذي فلق الحبة و برأ النسمة ، إلا فهماً يؤتيه الله رجلاً من الناس) .

إن هذا المنهج و هذا الفهم الذي ندعو له و نؤكد عليه يعتمد اعتمادا كلياً على عربية القرآن ، و على فهم اللغة العربية فهماً خاصاً لا عاماً ، و التمكن منها و استيعابها ، و من ثم التمكن من القرآن الكريم و فهمه كما أراد الله ذلك بنص القرآن الكريم : (إنّا جعلناه قرآناً عربياً) الزخرف (٣) ، لم يكن عربياً فصار عربياً ، كلام الله قديم لا تحيط به قوانيننا ، فجعله الله في هذه الصيغة العربية لتحيط به قوانيننا ، (و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) .

(إنّا أنزلناه قرانّا عربياً) يوسف (٢) و طه (١١٣) ، أي أن هذا الجعل تم بفعل الله و إنزاله تم بأمر الله ، و المقصود هنا (اللغة) فما من لغة على وجه الأرض تحمل المراد الإلهي و تتصرف به على إرادته إلا هذه اللغة الكريمة العظيمة الشريفة الثقيلة : (إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً) المزمل (٥) ، و من ثقل القرآن الكريم ربطه بهذه اللغة الصعبة على الأعاجم : (ولو نزلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين) الشعراء (١٩٨-١٩٩) ، و الأعجمي هو الذي لا يحسن الكلام العربي حتى لو كان عربياً ، و القرآن الكريم يتوجه إلى الناطقين باللغة العربية عموماً وإلى أهل اللسان العربي خصوصاً لدراسته وفهمه واستيعابه وحفظه، لفظاً، ومعنى ، (نزل به الروح الأمين* على قلبك لتكون من المنذرين* بلسان عربيٍ مبين) الشعراء (١٩٣-١٩٤-١٩٥).

و اللسان غير اللغة ، فاللغة : هي معرفة الكلمات و الألفاظ و القواعد و إجادة القراءة و الكتابة و قد يتعلمها الأعجمي أو الأجنبي ، أما اللسان : فهو كل ما يحيط باللغة من شعر و بيان و بلاغة وفنون قول مما لا يدركه إلا صاحب الحس العربي الأصيل ، كالشاعر و الأديب و البليغ و المبدع ، ممن يتذوق ذاك الطعم اللذيذ و يسمع ذلك الجرس الخفي و يطرب لتلك الموسيقى المنبعثة من انسجام تلك الحروف و الكلمات و التراكيب مع بعضها و مع معانيها لتشكل أجمل لوحة فنية رائعة .

إن الكلمة العربية الواحدة يمكن أن تقدم موضوعاً و معنىً يفهمه كل جيل فهماً خاصاً به (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه) يوسف (٣٥) ، سجن بلا ذنب و ظلم سافر بدون محاكمة و من غير تحديد مدة زمنية كما يحدث اليوم في كثير من سجوننا .

(كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا) آل عمران (٣٧) ، حقيقة تربوية على رب الأسرة أن يسأل أبناءه و بناته من أين جاءك هذا ، و مبدأ عام على الراعي أن يسأل رعيته من أين لك هذا وعن أي طريق جاءك و كيف حصلت عليه ، وقد طُبق هذا المبدأ في بعض الدول و لكنه الغي بأمر من السلطان لأنه يمس الأمن القومي للبلد .

المفردة العربية يفهمها العربي لما فيها من إيحاءات و إيماءات بطريقة مختلفة عن فهم غير العربي ، و لهذا حرّم أبو حنيفة النعمان ترجمة القرآن إلى اللغة الفارسية .

بعض النصارى غالى فقالوا : المسيح ثالث ثلاثة ، و غالى أكثر فقالوا : هو ابن الله ، و غالى أكثر و أكثر فقالوا : هو الله . فرد عليهم الله بقوله (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل و أمه صديقة كانا يأكلأن الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات) المائدة (٧٥) ، هذا الذي تزعمون إنه إله ، هو مخلوق مثلكم يفعل كما تفعلون ، يأكل و يشرب و ينام ، و تخرج منه الفضلات مثلكم تماماً ، وهذه ليست من صفات الإله الخالق ، ولكنه عبر عن ذلك تنزهاً و اختصاراً بـ (يأكل الطعام) و ترك للقارئ العربي الذي يدرك أسرار هذا الكتاب من أصحاب اللسان وليس من أصحاب اللغة أن يفهم هذا المعنى و يستخرجه لوحده . وهذا معنى قوله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تين جلودهم و قلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء و من يضلل الله فما له من هاد) الزمر (٢٣) .

علينا أن ننتبه إلى هذه الصيغ العربية القرآنية و نضع الآيات المتناظرة المتشابهة مع بعضها ، ثم ننظر فيها مجتمعة و لا نأخذ من آية واحدة قاعدة مجتزأة و نبني عليها حكماً مجتزأً ، فنختلف ، و نخالف ، و هذا ما أخذته الفرق فتفرقت و اختلفت كما قال الدكتور أحمد الكبيسي .

فالمتشابه اللفظي كما عرَفته في كتابي (المبنى و المعنى في الآيات المتشابهات في القرآن الكريم) هو إحاطة الصورة من جميع جوانبها و لكن الاختلاف في زاوية النظر إلى الصورة و نقطة التركيز فيها ، فإذا وقف على لقطة أو جزءٍ منها فهذا لا يعني غياب بقية الأجزاء بل هي حاضرة في الذهن و حاضرة على الورق ، و لكنها موزعة بين السور والآيات ، و الجمال و الإبداع و الكمال و التمام يكون عند التقاط هذه الأجزاء و ضمها بعضها إلى بعض و ترتيبها ، فإذا جمعت هذه اللقطات إلى بعضها تشكلت أجمل لوحة ، بلا تكرار أو تنافر أو تضارب أو اختلاف ، و بما يظهر جمال الصورة و عظمة المصور .

و هو مشاهد و متناثر بين السور و الآيات و كل مشهد من هذه المشاهد يركز على جانب من جوانب الحدث أو الأحداث و يبرزه ، فإذا جمعت هذه المشاهد إلى بعضها و رتبت ترتيباً جديداً ظهر لنا الموضوع كاملاً متكاملاً ، دون تكرار أو استطراد أو زيادة أو نقصان ، و بأسلوب قراني متميز و متمكن و رصين [١]

إن معرفة هذا المتشابه و الإحاطة به تحتاج إلى معرفة معاني الحروف كلها و استخدام القرآن الكريم لكل حرف منها في موضعه ، و معرفة معاني الأفعال كلها و استخدام القرآن الكريم له ، و معرفة معاني الأسماء كلها و استعمال القرآن الكريم لها ، ومعرفة الأساليب البلاغية كلها ، و الأساليب النحوية كلها و هندسة الحرف و الكلمة و التركيب و الجملة و العبارة و الآية كلها ، أي باختصار : الإحاطة بعلوم النحو و الصرف و الصوت و الدلالة كلها ، و علوم البلاغة كلها ، و علوم اللغة كلها ، و معاني المفردات كلها ، أي باختصار شديد : الإحاطة

[١] صفحة ٥٨

بعلوم العربية كلها ، وهذا الأمر في غاية الصعوبة ، وهو الذي يجعلني استشعر صعوبة و خطورة العمل بالقرآن الكريم و كذلك عظم المسؤولية الملقاة على عاتقنا نحن خدمة القرآن الكريم ، و ما هو مطلوب منا .

يقول الدكتور أحمد الكبيسي : إن آفة التفسير هو عدم معرفتنا بدقة هذه اللغة ، فلو استنطقنا الحرف العربي لأغنانا عن الأخذ من الإسرائيليات التي اخذ منها كل المفسرين ، و لا سيما في القصص القرآني .

و أضيف لأمكننا أن نكتشف كل الدس الشعوبي و ننقي تفاسيرنا مما علق بها عبر مر السنين ، و هي دعوة للعودة إلى الجذور و الأصول ، إلى لغتنا العربية النقية الصافية و إلى قرآننا المجيد للتمسك بهما وخدمتهما وتوحيد ألسنتنا بلسان عربي مبين بعد أن توزعنا بين العجمة الشرقية و اللكنة الغربية قروناً طويلة .

فلا بد لنا لمعرفة ديننا بشكل صحيح من فهم قراننا و تذقه ، و معرفة معاني حروفه و مفرداته و جمله و آياته ، و لا بد لفهم قراننا من التمكن من لغتنا العربية ، و التفقه بها ، فاللغة هي سر من أسرار إعجاز هذا القرآن و من ثم فان علمها و معرفتها و التفقه بها واجب وفريضة .

وخلاصة القول فان المنهج الصحيح لدراسة المتشابه من القرآن الكريم كما أرى يجب أن يقوم على ثلاثة جوانب أساسية :

أولا : التفسير : وهو جمع ما قاله المفسرون في الآيات التي تريد دراستها .

ثانياً : التحليل : وهو دراسة الحرف و الكلمة و التركيب و الآية دراسة لغوية دلالية .

ثالثاً : التأويل : وهو النظر في التفسير و التحليل و استخراج المعاني الجديدة و تثبيتها و يمكن لي أن اجعل التحليل و التأويل شيئاً واحداً .

وهذا ما سأطبقه في دراستي هذه لسورة الكوثر ...

الدراسة التفسيرية :

(إنّا أعطيناك الكوثر * فصلِ لربك و انحر * إنَ شانئك هو الأبتر)

الكوثر (١-٣)

قراءتها :

قرأ الجمهور (أعطيناك) وقرأ الحسن و طلحة و أبو محيصن و الزعفراني (انطيناك) بالنون .

وهي على ما قال التبريزي : لغة العرب العرباء من أولي قريش ، وذكر غيره أنها لغة بني تميم أهل اليمن ، وليست من الإبدال الصناعي في شيء كما يقول الآلوسي ومن كلامه ﷺ : (اليد العليا المنطية واليد السفلى المنطاة) وكتب عليه الصلاة والسلام لوائل : (انطوا الشبجة -أي الوسط - في الصدقة) [١] وقيل هي لغة العرب العاربة، قال الأعشى :

حبـــــاؤك خير حباء الملوك * * * * * يصـان الحلال و تنطي الحلـــــولا [٢]

[١] روح المعاني للالوسي ج ٣٠ ص ٤٤٠ .

صفاتها :

هي أقصر سورة في القران الكريم ، و تسمى سورة النحر أيضا [٣] .

قالوا هي كالمقابلة للسورة التي قبلها (سورة الماعون) . (أرأيت الذي يكذب بالدين * فذلك الذي يدع اليتيم * و لا يحض على طعام المسكين * فويل للمصلين اللذين هم عن صلاتهم ساهون * اللذين هم يراؤون و يمنعون الماعون) الماعون (١-٥) ، فقابل البخل بالكوثر و السهو عن الصلاة بالدعوة إليها (فصل) ، و الرياء بـ (لربك) ، و منع الماعون بـ (النحر) [٤] .

مكان نزولها :

قالوا مكية ، في قول ابن عباس و الكلبي و مقاتل و ابن الزبيري وسيدتنا عائشة ، و مدنية في قول الحسن و عكرمة ومجاهد وقتادة رضي الله عنهم جميعاً ، وقيل أنها نزلت مرتين [٥] .

أسباب نزولها :

يذكر المفسرون مجموعة أسباب لنزول هذه السورة ، فقسم كبير منهم يذكر أنهﷺ أغفى إغفاءة في المسجد بين بعض الصحابة ثم انتبه ، فابتسم ، فسألوه ، فذكر لهم السورة ، وتحدث لهم عن الكوثر ، وهذا ما سأفصله في تفسير معنى الكوثر .

وقسم منهم يجعل قصة وفاة ابنه ﷺ وشنآن أهل مكة ، و بعض رجالات قريش ، سبباً لنزول هذه السورة . وهذا ما سأفصله وأقف عليه في تفسير معنى (شانئك) و (الأبتر) .

وقسم قال : بل نزلت يوم الحديبية ، حين حوصر النبي ﷺ و أصحابه ، وصدوا عن البيت الحرام ، فأمره الله فيها أن يصلي ، و ينحر ، و ينصرف [٢] .

وقسم يذكر أسبابا غريبة لا يقبلها عقل و لا منطق ، فقد ذكر الرازي في تفسيره قصة عجيبة مضحكة ، قال : روي أن أبا جهل اتخذ ضيافة لقوم ثم انه وصف رسول الله ﷺ بالأبتر ثم قال : قوموا حتى نذهب إلى محمد أصارعه و أجعله ذليلاً حقيراً ، فلما صاروا إلى دار خديجة وتوافقوا على ذلك (اتفق الرسول ﷺ أبو جهل على أن يتصارعا) يقول : أخرجت خديجة رضي الله عنها بساطاً (حلبة مصارعة) فلما تصارعا ، جعل أبو جهل يجتهد في أن يصرعه ، و بقي النبي ﷺ واقفاً كالجبل ، ثم بعد ذلك رماه النبي على أقبح وجه فلما رجع أخذه باليد اليسرى ،

---

[٢] فتح القدير ج ٣٠ ص ٦٤١ .

[٣] ابن كثير ج ٣٠ ص ٥٥٩ .

[٤] فتح القدير ج ٣٠ ص ٦٤١ .

[٥] المصدر نفسه ج ٣٠ ص ٦٤١ .

[٢] الطبري ج ٣٠ ص ٧٢٢ .

لأن اليسرى للاستنجاء كما يقول – و لا أدري إذا كان هناك وقتها وضوء و استنجاء أم لا ؟ – فكان نجساً ، قال : فصرعه على الأرض مرة أخرى ووضع قدمه على صدره فالمقصود هذه الواقعة كما ذكر بعض القصاص [٣] .

وجاء في تفسير الطبري : حدثني أبو الخطاب الجارودي سهيل ، قال حدثني مسلم بن قتيبة ، قال حدثنا القاسم بن الفضل عن عيسى بن مازن قال : قلت للحسن بن علي (رضي الله عنه) يا مسود وجوه المؤمنين عمدت إلى هذا الرجل فبايعت له ، يعني معاوية (و أصحح سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما) فقال الحسن : لا تؤذيني يرحمك الله ، إن رسول الله ﷺ أري في منامه بني أمية يعلون منبره خليفة خليفة ، وفي رأي أخر : ينزون على منبره نزو القرود ، فشق عليه ذلك ، فأنزل الله (إنّا أعطيناك الكوثر) [٤] .

عيسى بن مازن هذا الصعلوك التافه ، يشتم الحسن بن علي أمام جموع المسلمين و بين أهله و عشيرته من قريش ، ويسترضيه الحسن و يستسمحه و يرجوه أن يغفر له مبايعته لسيدنا معاوية ، في هذا الكلام الموضوع على لسانه تنزه و تكرم ، أي سخف هذا و أية شعوبية هذه . هذا ما جاء في بعض التفاسير المحترمة أما لو فتحنا الكتب الصفراء أمثال الغدير و غيره لوجدنا فيها كلاماً تقشعر له الأبدان و لا يخرج من قلب عربي مؤمن . و سأقف على بعض هذا في الصفحات الآتية .

ما هو الكوثر و ماذا قال المفسرون فيه :

أورد المفسرون في الكوثر أقوالا كثيرة ، اتفقوا و اجتمع رأيهم على المعنى اللغوي فقط ، وهو أن العرب تسمي كل شيء كثير في العدد و القدر و الخطر كوثرا ، و الكوثر : من الغبار الكثير ، و استشهدوا ببيت من الشعر لحسان بن نشبة :

أبــوا أ ن يبيحوا جارهم لعدوهم **** وقد ثار نقع الموت حتى تكــوثرا [١]

و الكوثر : فوعل ، من الكثرة المفرطة ، و من الخير الكثير ، قيل لإعرابية رجع ابنها من السفر : بم آب ابنك ؟ قالت آب بكوثر ، و استشهدوا على ذلك بقول الشاعر :

و أنت كثير يــا بن مروان طيب **** و كان أبوك ابن العقائل كوثــــرا [٢]

أما في الاصطلاح : فقد كثرت آراؤهم فيه ، اتفقت أحياناً و اختلفت اختلافا بينا و تعارضت في أحايين أخرى ، ومما اتفقوا عليه تقريباً ما جاء في صحيح مسلم : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما ، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال (نزلت علي آنفا سورة فقرأ بسم الله

---

[٣] الرازي م ج ٣٢ ص ١٣٣ .

[٤] الطبري ج ٣٠ ص ٦٥٣ .

[١] القرطبي م ج ٢٠ ص ٢١٦ .

[٢] الكشاف مج ٤ ص ٢١٩ و مجمع البيان م ج ١٠ ص ٤٥٨ .

الرحمن الرحيم ، إنّا أعطيناك الكوثر .... الخ ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله و رسوله أعلم ، قال : (فإنه نهر وعدنية ربي ﷻ ، عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم ، و في رواية أخرى عدد الكواكب ٣ فيختلج العبد منهم أي ينتزع و يقطع عنهم ٤ فأقول : إنه من أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ماذا أحدث بعدك ، ترده طير أعناقها مثل أعناق الجزر ، وفي رواية أخرى كأعناق البخت ، قال أبو بكر الصديق و في رواية عمر رضي الله عنهما إنها لناعمة يا رسول الله ؟ قال أكلها أنعم منها ، وفي رواية : أنعم منها من أكل الطائر وشرب الماء ، وفاز برضوان الله ٥

وفي مجمع البيان (الكوثر : هو نهر أعطاه الله لرسوله عوضاً عن ابنه وقيل : هو حوض النبيﷺ) ٦ .

صفات نهر الكوثر أو حوض الكوثر كما ذكرها المفسرون :

حافتاه : من ذهب و فضة وقباب اللؤلؤ أو خيام اللؤلؤ أو قصور اللؤلؤ و الياقوت أو الزبرجد .

وشاطئاه : الدر المجوف ، و يجري على الدر و الياقوت ٧ .

تربته : أطيب من ريح المسك ، أو ترابه المسك ، و حصباؤه اللؤلؤ و الياقوت ، أو ترابه مسك أذفر ، و أرضه : ياقوت و مرجان و زبرجد و لؤلؤ ٨.

ماؤه : أبرد من الثلج ، و ألين من الزبد ، و أشد بياضا من اللبن ، و أحلى من العسل ١ ، و قالوا : أشد بياضا من الثلج ، و ماؤه الخمر ٢ . أوانيه : من فضة ٣ .

منبعه : قالوا يشخب من ميزابين من السماء من نهر الكوثر ٤ . طوله و عرضه : ما بين المشرق و المغرب عمقه : عن عائشة رضي الله عنها : عمقه سبعون ألف فرسخ كما يقولون ٥ .

---

[٣] ابن كثير ص ٥٥٧ و الطبري ٦٥١ .

[٤] صفوة التفاسير ص ٦١١ .

[٥] مجمع البيان مج ١٠ ص ٤٥٩ ، و القرطبي مج ٢٠ ص ٢١٦ ،و ابن كثير ص ٥٥٨ .

[٦] مجمع البيان مج ١٠ ص .٤٦٠

[٨] الكشاف مج ٤ ص ٢٩١ .

[١] الكشاف مج ٤ ص ٢٩١ ، و الميزان ج ٣٠ ص ٤٣١ .

[٢] الطبري ج ٣٠ ص ٦٥١ .

[٣] الكشاف مج ٤ ص ٢٩١ .

[٤] ابن كثير ج ٣٠ ص ٥٥٨ .

[٥] روح المعاني ج ٣٠ ص ٤٤٠ .

مكانه : اختلفوا في مكانه ، و تعددت آراؤهم ، ووصلت حد الاستغراب ، قالوا : عن عائشة رضي الله عنها و عن أبيها : إنه نهر في بطنان الجنة ، قيل لها و ما بطنان الجنة ؟ قالت : وسطها ٦ .

ومما قالوا : هو قبل الميزان و الصراط عند بعضهم ، و بعدهما قريبا من باب الجنة حيث يحبس أهلها من أمته ﷺ ليتحاللوا من المظالم التي بينهم عند آخرين ، ويكون على هذا في الأرض المبدلة ، وقيل له حوضان ، حوض قبل الصراط ، وحوض بعده ، و يسمى كل منهما على ما حكاه القاضي زكريا كما يقول الآلوسي : كوثرا ٧ ، و لكنه يستدرك قائلا : و صحح رحمه الله فقال : إن الحوض بعد الصراط ، و إن الكوثر في الجنة ، و إن ماء الحوض ينصب فيه ، لذا يسمى كوثراً ، و ليس هو من خواصه ﷺ كالحوض ، بل يكون لسائر الأنبياء عليهم السلام ، يرده مؤمنو أممهم ، ففي حديث الترمذي : (إن لكل نبي حوضا و إنهم يتباهون أيهم أكثر واردة ، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة) وهو كما قال : حديث حسن غريب ، وهذه الحياض لا يجب الإيمان بها كما يجب الإيمان بحوضه ﷺ عندنا ، خلافاً للمعتزلة ، و الكلام ما يزال للآلوسي ، النافين له ، لكون أحاديثه بلغت مبلغ التواتر بخلاف أحاديثها (أي المعتزلة) فإنها أحاد ، بل قيل : لا تكاد تبلغ الصحة ٨ .

ومن الآراء المستغربة في مكانه قولهم : هو على ظهر ملك عظيم يكون مع النبي ﷺ حيث يكون ، فيكون معه في المحشر إذ يكون فيه ، و في الجنة إذ يكون فيها ، و لا يعجز الله تعالى شيء ٨ .

و من المستغرب أيضا ما قالوا : يقف على أركانه الأربعة خلفاؤه الأربعة رضي الله عنهم أبو بكر و عمر و عثمان و علي ، و إن من أبغض واحدا منهم لم يسقه الآخر ٩ .

فضله : من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها ابدأ ١٠ ، و في رواية : لا يشرب منه أحد فيظمأ ، و لا يتوضأ منه أحد فيشعث ابدأ ، و لا يشرب منه أحد أخفر ذمتي ، و لا من قتل أهل بيتي ١١ .

ورَاده : قالوا : أول وارد له فقراء المهاجرين ، الدنسو الثياب ، الشعث الرؤوس ، اللذين لا يزوجون المنعمات ، و لا تفتح لهم أبواب السدر ، يموت واحدهم وحاجته تتلجلج في صدره ، لو أقسم على الله لأبره ١

---

٦ الطبري ج ٣٠ ص ٦٥٢ .

٧ روح المعاني ج ٣٠ ص ٤٤٠ .

٨ المصدر نفسه ج ٣٠ ص ٤٤١ .

٨ المصدر نفسه ج ٣٠ ص ٤٤١ .

٩ القرطبي ج ٣٠ ص ٢١٧ .

١٠ صفوة التفاسير ص ٦١١ و الكشاف مج ٤ ص ٢٩١ .

١١ روح المعاني ج ٣٠ ص ٤٤٠ .

١ الكشاف مج ٤ ص ٢٩١ .

صوته : يروون حديثاً عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها أنها قالت : من أحب أن يسمع خرير ماء الكوثر فليجعل إصبعيه في أذنيه [٢] .

الأقوال الأخرى في الكوثر :

أضاف المفسرون إلى النهر أو الحوض أقوالا كثيرة أخرى ، بعضها معقول مقبول ، و بعضها الآخر غير معقول و لا مقبول ، و مما قالوه : الكوثر الماء الكثير ، و كثرة الواردة الشاردة من أمة محمد ، و كثرة الخير ، و قالوا : النبوة ، و القرآن أو الكتاب ، و الحكمة ، وقالوا : خير الدنيا و الآخرة ، و قالوا : الإسلام وقالوا : ثواب الآخرة ، وقالوا : كثرة الأصحاب والأتباع و الأشياع ، وقالوا : انتشار الدين ، و علو أمره ، وقالوا : الحق ، و الرسالة ، وخاتمة النبوة ، و نهاية الرسالات ، و العلم ، و الفضل الكثير ، و الخير العميم و الفضائل الكثيرة المتصف بها ﷺ و الهدى ، و سعادة الدنيا و الآخرة ، وقالوا : هو تفسير القرآن ، أو تيسير القرآن ، وهو الإيثار ، وهو المعجزات ، وهو الفقه في الدين ، وهو الصلوات الخمس ، وهو لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وقالوا : هو التوحيد ، وفضائله ، و المقام المحمود ، و رفعة الذكر ، و إجابة الدعوة و نور قلبك ، و دلك على الله ، وقطعك عما سواه ، وقالوا : الأمة ، و الفتوحات ، و النصر على الأعداء ، و قالوا : هو العظيم من الأمر ، و قالوا : هو الشفاعة [٣] .

وقال بعضهم الذرية : جاء في مجمع البيان للطبرسي : الكوثر كثرة النسل و الذرية ، وقد ظهرت الكثرة في نسله من ولد فاطمة عليها السلام حتى لا يحصى عددهم ، و اتصل إلى يوم القيامة مددهم ، و كثرت ذريته حتى صار نسبه أكثر من كل نسب [٤] .

ويضيف الطباطبائي في الميزان : و كيف ما كان فقوله في آخر السورة (إن شانئك هو الأبتر) وظاهر الأبتر: المنقطع نسله ، وظاهر الجملة : أنها من قبيل قصر القلب ، و إن كثرة ذريته ﷺ هي المراده وحدها بالكثرة ، و أضع خطين تحت قوله وحدها ، ثم يعقب : و الجملة لا تخلو من دلالة على أن ولد فاطمة عليها السلام ، ذريته ﷺ ، و هذا في نفسه من ملاحم القرآن الكريم ، فقد كثّر الله تعالى نسله بعده كثرة لا يعادلهم فيها أي نسل آخر ، مع ما نزل بهم من النوائب ، و أفنى جموعهم من المقاتل الذريعة [٥] .

---

[٢] الطبري ج ٣٠ ص ٦٥٢ .

[٣] انظر القرطبي مج ٢٠ ص ٢١٦–٢١٧ ، و الطبري ج ٣٠ص ٧١٩ ، و ابن كثير ج ٣٠ ص ٥٥٩ ، و مجمع البيان مج ١٠ ص ٤٦٠ ، و التفسير الواضح مج ٣ ص ٩١١ ، وروح المعاني ج ٣٠ ص ٤٤٣ ، وفتح القدير مج ٣ ص ٦٤١ .

[٤] مجمع البيان مج ١٠ ص ٤٦١ .

[٥] الميزان مج ١٠ ص ٤٢٩ .

يضيف الرازي : و المعنى أن يعطيه بفاطمة نسلاً يبقون على مر الزمان ، و العلماء الأكابر منهم لا حد و لا حصر لهم ، فمنهم : الباقر ، و الصادق ، و الكاظم ، و الرضي ، و التقي ، و الزكي ، و غيرهم و لم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يعبؤ به [٦] .

فصل لربك و انحر :

ماذا قال المفسرون فيها :

فصل ؟ : قالوا : ١ هي حضه على المواظبة على الصلاة المكتوبة ، و على الحفظ عليها في أوقاتها ، و هي صلاة الفجر بجمع ، أو صلاة الغداة بجمع .

وقالوا : عن انس بن مالك رضي الله عنه كان النبي ﷺ يخرج ينحر ثم يصلي ، فأمر أن يصلي ثم ينحر ، وقالوا : فصل معناه : اعبد ربك ، وقالوا : كان المشركون يصلون مكاءً وتصدية ، فقال له الله : صلَ لربك وحده . وقالوا : فصل : الصلاة جامعة لكل أقسام الشكر ، وهي جنس الصلاة .

و انحر : ماذا قال المفسرون في انحر ؟ قالوا فيها أقوالاً كثيرة ، أجملها بما يأتي : قالوا : معناه : انحر أضحيتك ، و انحر الهدي (شاة أو بعير) و انحرا لبدن ، و اذبح ، وقالوا : كانوا يصلون لغير الله ، و ينحرون لغيره ، فقال له : اجعل صلاتك و نحرك لله . وقالوا : بل معنى ذلك : صل وادع ربك و سله ، وقالوا : اخلص صلاتك لربك ، و نحرك الإبل لتي هي خيار أموال العرب شكرا له ، وقالوا : استقبل القبلة بنحرك ، و يذكرون ما سمع عن العرب قولهم : منازلهم تتناحر أي هذا قبالة هذا ، وشاهدهم قول الشاعر :

أبا حكم هل أنت عمَ مجالـــــد **** وسيد أهل الأبطح المتناحـــــر

وقالوا : هو انتصاب الرجل في الصلاة إزاء المحراب .

وقالوا : النحر : رفع اليدين إلى النحر عند افتتاح الصلاة و الدخول فيها .

وقالوا : انحر : ارفع صلبك بعد الركوع و اعتدل و أبرز نحرك .

وقالوا : أمره أن : يستوي بين السجدتين جالسا حتى يبدو نحره .

وقالوا : ارفع يديك بالدعاء إلى نحرك .

وقالوا : يرفع المصلي يديه حين يفتتح الصلاة ، و لا يرفع فيما سوى ذلك [٢].

---

[٦] الرازي مج ٣٢ ص ١٣٣ .

[١] انظر الطبري ص ٧٢٢ ، و ابن كثير ص ٥٥٩ ، و مجمع البيان ص ٤٥٩ ، و القرطبي ص ٢١٩–٢٢٠ ، والكشاف ص .٢٩١

[٢] انظر مجمع البيان ج ٣٠ ص ٤٣٣ ، و الطبري ص ٧٢٢–٧٢٤ ، وصفوة التفاسير ص ٦١١ . ،و ابن كثير ص ٥٥٩ —٥٦٠ ، و الكشاف م ٤ ص ٢٩١ ، و الميزان ص ٤٣٠ .

ومن الآراء التي اختلفوا فيها ما يأتي :

النحر : هو وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر ، أو وضع اليمين على الشمال في الصلاة ، ثم وضعهما على الصدر ٣ جاء في فتح القدير و القرطبي ما يأتي : اخرج ابن أبي شيبة و النجاري في تاريخه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم ، و الدار قطني في الإفراد ، و أبو الشيخ و الحاكم و ابن فردويه و البيهقي في سننه عن سيدنا علي ابن أبى طالب رضي الله عنه في قوله تعالى (فصلَ لربك و انحر) قال النحر : وضع اليد اليمنى على وسط ساعده اليسرى ثم وضعهما على صدره في الصلاة ، ويضيف ابن كثير عن الشعبي مثله ٤ .

و يعقب القرطبي على ذلك بقوله : وقد اختلف المالكية في هذه الهيأة ، و الصحيح أن المصلي يفعل ذلك في الفريضة و النافلة ، لأنه ثبت أن رسول الله ﷺ وضع يده اليمنى على اليسرى ، من حديث وائل بن حجر و غيره ، و به قال مالك ، و أحمد و إسحاق و الشافعي و أصحاب الرأي . و استحب جماعة إرسال اليد ١ و الموضع الذي توضع عليه اليد مختلف فيه ، فروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه انه وضعهما على الصدر ، وقال سعيد بن جبير و أحمد بن حنبل : فوق السرة ، وقال : لا بأس إن كانت تحت السرة ٢ .

الطبرسي في مجمع البيان ٣ يردَ هذا الحديث و ينفيه ، و يكذبه بقوله : أما ما روي عن علي كرم الله وجهه أن معناه ضع يدك اليمنى على اليسرى حذاء النحر في الصلاة لا يصح عنه ، لأن جميع عترته الطاهرة قد رووه بخلاف ذلك ، وهو أن معناه ارفع يديك إلى النحر في الصلاة .

و يشاركه في هذا الرأي الطباطبائي في الميزان ٤ بقوله : إن جميع عترته الطاهرة رووا عنه عليه السلام معنى النحر رفع اليدين إلى النحر في الصلاة .

و يفسران النحر بقولهما : روي عن مقاتل بن حيان ، عن الإصبع بن نباته ، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال : لما نزلت هذه السورة قال النبي ﷺ لجبريل عليه السلام ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي ؟ قال جبريل ، ليست بنحيرة ، و لكنه يأمرك إذا تحرَمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبَرت ، و إذا رفعت رأسك من الركوع ، و إذا

---

[٣] ابن كثير ص ٥٥٩ ، و الطبري ص ٧٢١ .

[٤] فتح القدير ص ٦٤٤ ، و القرطبي م ٥ ص ٢١٩ ، و ابن كثير ص ٥٥٩ .

[١] القرطبي ج ٢٠ ص ٢ و ما بعدها .

[٢] التفسير المنير ج ٣٠ ص ٤٣٥ .

[٣] مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٦١ .

[٤] الميزان ج ٣٠ ص ٤٣٠ .

سجدت ، فانه صلاتنا و صلاة الملائكة في السماوات السبع فان لكل شيء زينة ، و إن زينة الصلاة رفع الأيدي عند كل تكبيرة [٥] .

ويؤكد هذه الطريقة ، الطباطبائي [٦] بسند آخر ، يقول : في الدر المنثور اخرج ابن أبي حاتم و الحاكم و ابن مردويه و البيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : ويذكر الحديث مرة أخرى على لسان ابن عباس بقوله : و اخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى : (فصل لربك و انحر) قال : ويذكر الحديث ، و لا يكتفي بذلك بل يؤكد ذلك برواية عن الحسين بن علي عليه السلام بقوله : عن عمر بن يزيد قال : سمعت أبا عبد الله (الحسين) يقول في قوله (فصل لربك و انحر) هو رفع يديك حذاء وجهك . وروى عنه عبد الله بن سنان مثله ، وروى أيضا قريباً منه عن جميل عنه عليه السلام .

و لا ندري قريبا منه كيف يكون ؟

القرطبي [٧] لا يرويه على انه حديث شريف عن رسول الله ﷺ و إنما هو حديث ابن عمر رضي الله عنه يقول : و أما رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح و الركوع و السجود فمختلف فيه أيضا ، و الصواب ما في الصحيحين من حديث ابن عمر قال : (رأيت رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى تكون حذو منكبيه ، ثم يكبر و كان يفعل ذلك حين يكبر للركوع ، و حين يرفع رأسه من السجود ، قال بن المنذر هذا قول الليث بن سعد ، و الشافعي ، و أحمد ، و إسحاق ، و أبي ثور ، و حكى ابن وهب عن مالك هذا القول.

يقول القرطبي : وبه أقول ، لأنه الثابت عن رسول الله ﷺ .

إنّ شانئك هو الأبتر:

ماذا قال المسفرون في شانئك ؟ :

قالوا [١] : مبغضك ، وعدوك ، وحاسدك ، ومبغض ما جئت به من الهدى ، والحق ، والبرهان الساطع ، والنور المبين .

ماذا قالوا في الأبتر[٢] ؟ : قال أهل اللغة : البتر : القطع ، وبترت الشيء بتراً : قطعته ، والباتر : السيف القاطع ، وخطب زياد خطبته البتراء ، لأنه لم يحمد الله فيها ، ولم يصل على نبيه ، والأبتر من الرجال : الذي لا ولد له ، ومن الدواب : الذي لا ذنب له ، ويقال : رجل أُباتر ، بضم الهمز : الذي يقطع رحمه ، وكانت العرب تسمي من كان له بنون وبنات ، ثم مات البنون وبقي البنات : أبتر.

---

[٥] المصدر نفسه ج ٣٠ ص ٤٣٠ ، و مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٦١ .

[٦] الميزان ج ٣٠ ص ٤٣٠ .

[٧] القرطبي ج ٣٠ ص ٢٢٢ و ما بعدها .

[١] انظر : الطبري ج ٣٠ ص ٧٢٤ ، و ابن كثير ج ٣٠ ص ٥٦٠ و التفسير الواضح مج ٣ ص ٩١١ .

[٢] انظر : صفوة التفاسير ج ٣٠ ص ٦١١ ، القرطبي مج ٢٠ ص ٢٢٣ .

وقالوا : الأبتر[3] : الأقل ، الأذل ، المنقطع ذكره ، والمنقطع دابره ، والذي لا عقب له ، وقالوا : الحقير الذليل ، المنقطع عن الخير ، وقالوا : الفرد مقطوع الأثر والذكر ، والمنسي في الدنيا والآخرة .

وقالوا في : (إنّ شانئك هو الأبتر[4]) إن مبغضك من قومك هو الأبتر لا أنت ، لأن كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولاك وأعقابك ، وذكرك مرفوع على المنابر وعلى لسان كل ذاكر إلى آخر الدهر .

وقالوا [1] : إن الله عز وجل لما أوحى إلى الرسول ﷺ ودعا قريشاً إلى الإيمان ، قالوا : أنبتر منا محمد ، أي خالفنا وانقطع عنا ، وقالوا [5] : هو الأبتر، لا أنت .

والقول السوء في الأبتر ما قاله الطبرسي في مجمع البيان ، حيث قال : (وقيل معناه أنه لاولد له على الحقيقة ، وإن من ينسب إليه ليس بولده [6]) .

وهذا القول المقصود منه التشكيك بنسب سيدنا عمرو بن العاص و أبنائه ، لأنهم يعتمدون الرواية القائلة بأنها نزلت في العاص بن وائل ، وسأوضح فساد هذا القول بعد قليل .

وقد ورد في التفسير الواضح رأياً ممجوجاً مستهجناً ، حيث ذكر أن الأبتر: مقطوع الذكر ، وعقب قائلاً : (وقد شبه الله الذكر الجميل بذنب الحيوان لأنه يتبعه ، وهو زينة له ، وشبه الحرمان من الأثر الطيب بقطع الذنب [7]) وسأبين سبب استهجان هذا الرأي بعد قليل .

من هو الأبتر:

اختلفوا في اختلافاً كبيراً ، فقال بعضهم : عني به العاص بن وائل ، وقال آخرون : عني بذلك جماعة من قريش ، وقال آخرون : بل نزلت في كعب بن الأشراف قال لأهل مكة : أنتم خير من هذا الصنبور ، والصنبور : النخلة المنفردة ، أو التي تنبت في جذع النخلة لا في الأرض .

وقال آخرون : بل في عقبة بن معيط ، و آخرون : في أبي لهب ، وآخرون : في أبي جهل .

واللافت للنظر ما انفرد به الطباطبائي في الميزان من رأي ، وهو قوله : (وفي بعض الآثار هو الوليد بن المغيرة) بعد أن يقول : نزلت في العاصي بن وائل ، بزيادة الياء ، وهذا الرأي يخفي وراءه أمرا سأذكره بعد قليل .

---

[3] انظر : ابن كثير ج ٣٠ ص ٥٦٠ ، و الطبري ج ٣٠ ص ٧٢٤ ، ومجمع البيان ١٠ ص٤٦١ .

[4] الكشاف مج ٤ ص ٢٩١ .

[1] القرطبي مج ٢٠ ص ٢٢٣.

[5] مجمع البيان مج ١٠ ص ٤٥٩ .

[6] المصدر نفسه مج ص ٤٦١ .

[7] التفسير الواضح مج ٣ ص ٩١١ .

مناقشة بعض الآراء :

بعد هذه الجولة التفسيرية في كتب التفسير واللغة ، لابد لي أن أثير بعض التساؤلات ، وأقف على بعض النقاط التي لفتت انتباهي ، وعلى بعض المسائل التي أثارت اهتمامي ، و أقول فيها رأياً أضيفه إلى الآراء التي قيلت من قبل ، وسبقني بها علماؤنا الأجلاء رحمهم الله جميعاً ، علني أقدم شيئاً جديداً ، فهذا القرآن لا يمل من الدرس ، ولا تنقضي عجائبه .

وأهم المسائل :

المسألة الأولى : مسألة العرب العاربة ، والعرب العرباء ، والعرب المستعربة : ذكر الآلوسي في قراءتها بالنون قول التبريزي : (وهي لغة العرب العرباء من أولي قريش ، وذكر غيره أنها لغة بني تميم وأهل اليمن) وذكر الشوكاني : (هي لغة العرب العاربة) واستشهد بقول الأعشى .

فأقول وبالله التوفيق : نحن نعلم أن العرب ثلاثة ، عرب بائدة : وهم الأقوام التي أبادهم الله وحل عليهم غضبه وسخطه ، وعرب عاربة : وهم الذين بقوا من العرب البائدة في اليمن أو العراق أو الشام أو مصر أو فلسطين ، والعرب المستعربة : وهم أبناء إسماعيل من أبيه العربي العراقي إبراهيم عليه السلام ، وأمه هاجر السيدة العربية الأميرة المصرية الهكسوسية التي كرمه بها أمير مصر العربي الموحد عندما زاره ابن عمه إبراهيم ، وزوج إسماعيل ومربوه أخوال أولاده من قبيلة جرهم العربية اليمانية ، ولهذا سموا بالعرب المستعربة ، لأن إسماعيل عليه السلام جد الرسول الكريم محمد ﷺ جمع بأمر الله وعنايته ورعايته كل العرب في نسب واحد ، عرب العراق ، وعرب مصر ، وعرب اليمن ، في مكان واحد (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم) إبراهيم (٣٧) . وكانت بداية التأسيس لدولة العرب المقبلة .

فالذي نعرفه أن قريشاً هم العرب المستعربة ، فعندما يقول التبريزي : لغة العرب العرباء من أولي قريش ، فإنني أقف على هذا القول ، و أتساءل عن قصده فيه ، و هل أخطأ التبريزي ؟ أم أخطأت كل المصادر التي اطلعت عليها وتحدثت في هذا الموضوع ؟ لا أعلم ومع أني أميل إلى الرأي المعارض له فإنني لا أستطيع أن أخطئ الرجل ، و إنما أثير المسألة للنقاش .

المسألة الثانية : وهي قضية تحديد مكان هذه السورة ، وسبب نزولها ، فقد كثرت الأماكن ، وتعددت الأسباب في سورة هي أقصر السور ، وفي سبب واضح أشد الوضوح ، وبزمن محدد ومعروف .

قالوا : مكية ، وقالوا : مدنية ، وقالوا : نزلت في الحديبية ، وقالوا : نزلت مرتين !! .

و أما في سبب نزولها فقالوا : نزلت في بني أمية ، وقالوا : نزلت في أبي جهل ، وقالوا : في العاص بن وائل ، وفي كعب بن الأشرف ، الذين شنؤوه وشمتوا بوفاة ابنه ، وقالوا : عندما حُصر في الحديبية وغير ذلك من أقوال كثيرة مختلفة ومضطربة .

والسؤال : ما هو سبب اختلاف المفسرين في تحديد مكان وزمان وسبب نزول سورة على قدر كبير من الأهمية مثل سورة الكوثر ؟ هذا السؤال يحيرني ، ولا أجد له جواباً سوى أنني أميل إلى نزولها في مكة وفي قضية شنآنهم على الرسول بإيمانه وخروجه على قريش المستبدة ، ووفاة أبنائه ، وامتحانه بمصائب كثيرة ، فجاءت هذه السورة عزاءاً ، ودواءاً ، وشفاءاً .

المسالة الثالثة : في صفات نهر الكوثر قالوا : أبرد من الثلج ، و نحن نعرف أن الثلج متجمد ، فإذا كان أبرد من الثلج فكيف يشرب ؟ إلا إذا فسروها على المجاز و ليس على الحقيقة .

وقالوا : يشخب من ميزابين من السماء ، ونحن نعرف أن الأنهار تنبع من الأرض .

وقالوا : طوله ما بين المشرق و المغرب ، و عمقه سبعون ألف فرسخ ، ولما اختلفوا في مكانه أهو قبل الصراط أم بعده ؟ خّرجها أحدهم بان جعل له حوضين ، حوض قبل الصراط ، و حوض بعده ، وخّرجها آخر بطريقة تحسم كل خلاف كما يعتقد ، إذ جعل هذا النهر العظيم ، على ظهر ملك عظيم ، يسير حيثما سار الرسول ﷺ ويكون معه حيث ما يكون ، في المحشر ، قبل الصراط و بعده ، و في الجنة إذ يكون فيها ، و نسي أن هذا النهر طوله ما بين المشرق و المغرب ، وعمقه سبعون ألف فرسخ ، فكم سيكون حجم هذا الملك ، وكم هو حجم الرسول ﷺ الذي يسير هذا الملك العظيم معه ، وهل سيبقى على حجمه الطبيعي أم يصبح بحجم هذا الملك ؟ و أين سيقف خلفاؤه الأربعة ؟ وما هي أحجامهم أيضا ؟ وكيف سيصدون من أبغض أحدهم عن نهر هذا حجمه ؟ أم أن أحجامهم ستتغير أيضا لتصبح مساوية لهذا النهر ؟ وهل أعلمهم الرسول أن هؤلاء الأربعة سيكونون خلفاء له ؟ أم من اجتهادهم ، وكيف سيعرفون أن هذا أبغض واحدا منهم فيصدونه عن الشرب من هذا النهر ؟ و إذا كان الرسول ﷺ قد قال حقاً : لا يشرب من هذا النهر من قتل آل بيتي ، فإن المقتلة الرهيبة الفاجعة التي حلت بآل بيته الكرام الأطهار ، إنما جاءت تأكيدا لنبوءته وجاءوا إلى القتل وهم يعلمون ذلك ، ومن ثم فلا داعي لتجديد هذا المصاب ، و إيقاظ هذه الفتنة في كل عام بما يسمونه بالعاشوراء .

و أما قولهم : (أول وارد له فقراء المهاجرين ، الدنسو الثياب ، الشعث الرؤوس ، اللذين لا يزوجون المنعمات ، و لا تفتح لهم أبواب السدر ، يموت أحدهم و حاجته تتلجلج في صدره ، لو أقسم على الله لأبره) فأقول فيه : أولا : لا يوجد بين المهاجرين فقير ، فالمهاجرون من قريش ، و قريش تعهد الله بإطعامهم ، و أمنهم (الذي أطعمهم من جوع و أمنهم من خوف) قريش (٤) ، و نحن نعرف ماذا فعل الأنصار لهم من مؤاخاة لم تحصل في تاريخ البشرية كلها ولن تحصل أبدا ، ودامت هجرتهم ثمانية أعوام ثم عادوا فاتحين إلى ديارهم ، و أخذوا من الغنائم في فتح مكة ، وفي معركة حنين الشيء الكثير ، وفتحت لهم الدنيا بعد ذلك خزائنها ، وكانت لهم حصة الأسد في كل قسمة ، فمن أين جاءهم الفقر ؟ ثم قولهم الدنسو الثياب ، الشعث الرؤوس ، اللذين لا يزوجون المنعمات : هل لبس الثياب الجميلة الأنيقة محرم أو مكروه في الإسلام ؟ هل الإسلام دين الوساخة و القذارة ؟ أم دين النظافة و الزينة (يا بني

آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد و كلوا و اشربوا و لا تسرفوا) الأعراف (٣١) ، وهل الزواج بالمنعمات محرم أو مكروه ؟ لماذا تزوج الرسول ﷺ من خديجة إذاً ؟ ألم تكن منعمة و ابنة العز و الحسب و النسب و الجاه و الثراء ؟ ثم منْ من أبناء المهاجرين الذي لم تفتح له أبواب السدر ؟ و منْ منهم من لم يكن صاحب سدر أصلا ؟ ومن منهم الذي مات وحاجته تتلجلج في صدره ؟ من أين يأتون بهذا الكلام لا أدري ؟ ! و هذه الدعوة إلى الزهد ؟ وترك الدنيا و التمتع بها ؟ لقد خلقنا الله فيها لنعيشها بكل تفاصيلها ، و نتنعم بنعيمها ، و نتزين بزينتها دون أن نسرف ، و بما يرضي الله ودون أن ننسى واجبنا تجاه ديننا و تجاه دنيانا ، لنكسب الحسنيين ، نعيم الدنيا و نعيم الآخرة إنشاء الله ، فالحياة حلوة ، و الله جميل يحب الجمال .

ويروون عن سيدتنا عائشة حديثا إنها قالت : من أحب أن يسمع خرير ماء الكوثر ، فليجعل إصبعيه في أذنيه وقد وضعت إصبعي في أذني ، فسمعت صوتا مزعجا ودوياً مؤذياً ، ولكم أن تجربوا .

المسألة الرابعة : مسالة الذرية و النسب ، و سيأتي تفصيلها و الحديث عنها في الدراسة التحليلية التأويلية .

المسالة الخامسة : مسالة وضع اليد اليمنى على اليد اليسرى على النحر في الصلاة ، فالمفسرون يذكرون أنه ثبت عن الرسول ﷺ فعل ذلك ، ويذكرون أن المالكية تخالف ذلك ، أي أنهم أجازوا إرسال اليد ، وقد وجدتهم يفعلون ذلك في ليبيا عندما كنت بينهم ، فبعضهم يضعها على صدره و بعضهم يرسلها دون أي حرج ، و ليست هذه بمشكلة فقد ثبت عن الرسول ﷺ الحالتين ، و لكن المشكلة في قول الطبرسي (أما ما رووا عن علي فمما لا يصح عنه) لماذا ؟ لأن جميع عترته الطاهرة قد رووه بخلاف ذلك ، وهذا هو الذي لا يصح ، وهو تحميل عترته الطاهرة ما لا تحتمل من إدعاء و افتراء أولا ، و ثانيا حصر الدين بهم مع اعتزازي و فخري بانتسابي إليهم [١] ، وإلغاء و نسف و تكذيب كل ما جاء عن غيرهم من الصحابة حتى لو كان عن علي نفسه ، فهذا ظلم كبير لهم ، وظلم للصحابة ، و ظلم للدين ، ودس عليه ، فما هم إلا جزء من ذاك الرعيل الأول الذي حمل الإسلام مجتمعاً دون تفريق أو تمييز إلا بما أمر الله به ورسوله وخلفاؤه من بعده ، و ما الإمام علي إلا واحد من بين آلاف الصحابة الأجلاء مع شيء من الخصوصية ، وما فاطمة رضي الله عنها إلا واحدة من آلاف الصحابيات الجليلات الطاهرات مع شيء من الخصوصية ، فليست المسالة ملكية أو وراثية (نحن معاشر الأنبياء لا نورث) . ..

المسالة السادسة: قول الطبرسي في الأبتر أن معناه: (إنه لا ولد له على الحقيقة، و إن من ينسب إليه ليس بولده).

---

[١] عبد المجيد – ياسين – حميدي – محمد – حيو – ملي – عمار – حاج خليفة – عبد الغني – عبد الله – ويس – أحمد – عمر – إدريس – صالح – غانم – عثمان – رمضان – جابر – بركة – ويس الكبير – يوسف – عثمان – منصور – علاء الدين – محمد – إبراهيم – محمد – علي – إبراهيم المجاب – محمد العابد – موسى الكاظم – جعفر الصادق – محمد الباقر – علي زين العابدين – الحسين بن علي – علي بن أبي طالب .

وهذا القول المقصود منه التشكيك بنسب سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه ، و أبناءه لأنهم يعتمدون الرواية القائلة بأنها نزلت في العاص بن وائل ، إن هذا الرأي وهذا القول هو تشكيك و دس و إساءة إلى الرسول ﷺ و سيدتنا خديجة الكبرى رضي الله عنها و فاطمة و علي و الحسن و الحسين ، قبل أن يكون إساءة إلى سيدنا عمرو بن العاص ، لماذا ؟ لأن المشركين هم أولاً قالوا للرسول هذا الوصف فإذا كان معناه انه لا ولد له على الحقيقة و أن من نسب إليه ليس بولده ، فالطعن في الرسول أولاً ، و بنسب أبنائه الشريف و لكن المشركين على الرغم من شركهم ، و كفرهم ، و محاربتهم للرسول بكل ما أوتوا من قوة لم يجرؤا على قول مثل هذا الكلام ، و لكنها الشعوبية الحاقدة على كل ما هو عربي و مسلم ، ولو كان شخص الرسول الكريم و نسبه الطاهر .

المسالة السابعة : ما جاء في التفسير الواضح عن الأبتر أيضا قوله : (إنه قد شبه الذكر الجميل بذنب الحيوان لأنه يتبعه وهو زينة له و شبه الحرمان من الأثر الطيب بقطع الذنب) وهذا في رأيي تشبيه قبيح ، فأية زينة للماعز و القرد في ذنبه ، و لكنها من المشاكلة ، و هذا يرد كثيرا في القرآن الكريم و في اللغة كقوله تعالى : (و يمكرون و يمكر الله و الله خير الماكرين) و غيره .

المسالة الثامنة : ما جاء في الميزان من أن المعتمد في المقصود بالأبتر هو العاصي بن وائل ، بزيادة الياء و تعليقه عليها إذ يقول : (في الدر المنثور اخرج ابن سعد و ابن عساكر عن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان أكبر ولد محمد ﷺ القاسم ، ثم زينب ثم عبد الله ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية ، فمات القاسم وهو أول ميت من ولده بمكة ، ثم مات عبد الله ، فقال العاصي بن وائل السهمي : قد انقطع نسله فهو أبتر، فأنزل الله (إنّ شانئك هو الأبتر) [1] ، و لكن المسألة لا تقف عند هذا الحد ، عند العاصي ، و إنما تتعداه لتصل إلى ابنه سيدنا عمرو حيث يقول : (وفيه أخرج الزبير بن بكار و ابن عساكر عن جعفر الصادق عن محمد الباقر عن أبيه علي زين العابدين ابن الحسين قال : توفي القاسم ابن رسول الله ﷺ بمكة فمر الرسول وهو آت من جنازته على العاصي بن وائل و ابنه عمرو ؟ فقال : حين رأى رسول الله ﷺ إني لأشنؤه ، فقال العاصي : لا جرم لقد أصبح أبتر، فأنزل الله (إنَ شانئك هو الأبتر) و بذلك يشرك الأب و ابنه بالشنآن و البتر ، و لا أدري من أين و كيف وردت هذه القصة إلى علي زين العابدين رضي الله عنه ؟

ومع هذا فلا يكتفون باشتراك الابن مع أبيه ، و إنما المطلوب هو تحميل الجريمة كلها لسيدنا عمرو بن العاص ، فيوردها مرة أخرى على الشكل الآتي ، يقول : (عن الحسن بن علي عليهما السلام في حديث يخاطب فيه عمرو بن العاصي ، يقول له : إنك ولدت على فراش مشترك ، فتحاكمت فيك رجال قريش ، منهم أبو سفيان بن حرب ، و الوليد بن المغيرة ، وعثمان بن الحارث ، و النضر بن الحارث بن كلدة و العاصي بن وائل ، كلهم يزعم انك ابنه ،

[1] الميزان ج ٣٠ ص ٤٣١ .

فغلبهم عليك من بين قريش ألأمهم حسبا ، و أخبثهم منصبا و أعظمهم بغية ، ثم قمت خطيبا وقلت (إنّا شانئ محمد) ٢ . و أقول : هل يمكن لمسلم مؤمن عاقل أن يصدق أن مثل هذا الكلام يصدر عن سيدنا الحسن بن علي عليهما السلام ، وبهذه الطريقة القبيحة الفجة ، وهو الذي يعتذر لعيسى بن مازن الذي شتمه قائلاً له : يا مسود وجوه المؤمنين عمدت إلى هذا الرجل فبايعت له ، يعتذر لهذا الصعلوك الشعوبي ، ويقول ما يقولونه من كلام مفحش في حق عمرو بن العاص ، أيعقل هذا ؟ و لكنها الشعوبية الحاقدة تقول ما تريد .

المسالة التاسعة : ما انفرد به الطباطبائي في الميزان بقوله (وفي بعض الآثار هو الوليد بن المغيرة) و أشار إلى ذلك إشارة دون ذكر التفاصيل ، لأن التفاصيل وردت في كشاف الزمخشري إذ ذكر في تفسير قوله تعالى (عتلَ بعد ذلك زنيم) القلم (١٣) ١ ، الزنيم : المنسب إلى قوم و ليس منهم ، وهو الدعي ابن البغاء ، ثم يضيف : هو الوليد بن المغيرة المخزومي ، استلحقه المغيرة بعد ثماني عشرة من مولده ، ثم يذكر حديثاً منسوباً للرسول ﷺ (لا يدخل الجنة ولد الزنا ، و لا ولده ، و لا ولد ولده) .

أتدرون من هو الوليد بن المغيرة المخزومي هذا ؟ انه سيد من سادات قريش في الجاهلية ، بل هو من أبرز سادتها ، لأن قريشا تمنت لو أن القرآن نزل عليه (لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) الزخرف (٣١) ، الوليد بن المغيرة في مكة ، أو عروة بن معتوق في الطائف .

قال في القرآن قولا لم يقله فيه أحد ، عندما جاءت إليه قريش تسأله عنه قال : (إن لقوله لحلاوة و إن عليه لطلاوة ، و إنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، و إنه ليعلو و لا يعلى عليه ، و إنه ليحطم ما تحته) فأرعبهم هذا الكلام ، وهز أركانهم ، قالوا له : لا يسمعك الناس فيسلموا ، وقالوا له : قل لنا فيه قولا ، قال : أمهلوني حتى أفكر ، ثم قال بعد أن فكر : (قولوا سحر يؤثر) ، فنزل فيه قوله تعالى : ((ذرني ومن خلقت وحيدا * وجعلت له مالا ممدودا * وبنين شهودا * ومهدت له تمهيدا* ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه لآياتنا عنيدا * سأرهقه صعودا * إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس و بسر * ثم أدبر و استكبر * فقال إنْ هذا إلا سحر يؤثر * إنْ هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر)) المدثر (١١-٢٦).

ونزل فيه قوله تعالى : ((فلا صدق و لا صلى * و لكن كذب و تولى * ثم ذهب إلى أهله يتمطى * أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى)) القيامة (٣١-٣٥) .

ونزل فيه قوله تعالى : ((و لا تطع كل حلاف مهين * هماز مشاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم * عتل بعد ذلك زنيم * أنْ كان ذا مال و بنين * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين * سنسمه على الخرطوم)) القلم (١٠-١٦)

---

[٢] المصدر نفسه ج ٣٠ ص ٤٣١ .

[١] الكشاف مج ٤ ص ١٤٣ .

من خلال قراءة هذه الآيات قراءة متأنية ، تظهر لنا شخصية الوليد بن المغيرة هذا ، بأنه ذو مال كثير و أبناء كثر وصاحب فكر و تدبير ومكانة عالية ، أكرمه الله بها ، وهيأ له أسبابها (ومهدت له تمهيدا) ولكنه لم يشكر الله و لم يؤمن به ، ويطمع بأكثر من ذلك ، بالرسالة و النبوة (ثم يطمع أن أزيد) .

أما في قول بعض المفسرين : بأنه دعي و ابن زنا ، استلحقه المغيرة بعد ثماني عشرة من مولده ، معتمدين على معنى الزنيم بأنه : المنسب إلى قوم و ليس منهم ، وهو الدعي ابن البغاء ..

فأقول فيه : جاء في لسان العرب[2] :

العتلة : حديدة كأنها راس فاس عريضة في أسفلها خشبة تحرث بها الأرض ، و العتلة : العصا الضخمة الغليظة من حديد أو خشب ، و العتلة : المدرة الكبيرة من الأرض تقلع إذا أثيرت .

و العتلُّ : هو الشديد الجافي : الفظ الغليظ من الناس الشديد ، الأكول ، المنوع ، الجافي الخلق ، اللئيم الضريبة ، الشديد الخصومة .

وجاء في عمدة الحفاظ[1] : العتلُّ ، الأكول المنوع ، الذي لا ينقاد لخير .

و العتْلُ : الأخذ بمجامع الشيء ، وجره بقهر ، وقيل الدفع بعنف .

وجاء في شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك[2] : العتُلُّ : الطويل العنق ، الضخمة .

وجاء في لسان العرب[3] أيضا : الزنيم : الذي له زنمتان في حلقه ، و الزنمة : اللحمة المتدلية في الحلق و أصل الزنمة : العلامة ، و الزنيم : الذي يعرف بالشّر و اللؤم ، كما تعرف الشاة بزنمتها و المزنم من الإبل الكريم الذي جعل له زنمة علامة لكرمه ، وزنيم و أزنم : بطنان من بني يربوع ، و الإبل الازنمية ، منسوبة إليهم . ماذا نستنتج من هذه التعريفات ؟ :

نستنتج أن العُتلُّ : هو الضخم ، الغليظ ، الكبير ، الشديد ، الفظ ، الأكول المنوع ، الجافي الخلق ، اللئيم ، الشديد الخصومة ، الذي لا ينقاد لخير ، الطويل العنق ، الضخم العنق .

و الزنيم : هو الذي له زنمتان في حلقه ، و الزنمة : اللحمة المتدلية في الحلق ، و الزنيم : هو الذي يعرف بالشر و اللؤم .

فلو وازنا بين هذه الصفات ، و بين ما جاء في القرآن الكريم ، لوجدناها متطابقة تماما ، فهو صاحب مال ، و أبناء كثر ، و مكانة رفيعة ، وهو ضخم الهيأة ، شديد ، جافي ، فظ ، غليظ .

---

[2] لسان العرب ابن منظور (مادة عتل) مج ٩ ص ٣٠ .

[1] عمدة الحفاظ للسمين ج ٣ ص ١٦٥٦ .

[2] شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ج ٢ ص ٢٥٩ .

[3] لسان العرب مج ٦ ص ٩٥ .

و هو كثير الخير ، و لكنه منوع له ، و بخيل ، أكول ، نهم بالأكل ، ممتلئ ضخم الجسم ، طويل العنق و ضخم الرقبة ، رقبته ممتلئة باللحم و الشحم ، متهدلة إلى أسفل كأنها جرجر ديك الحبش ، أو كأنها زنمتا شاة الماعز ، و لذلك قال : (سنسمه على الخرطوم) لضخامته ، و لطوله ، و ضخامة رقبته لدرجة أنه لا يستطيع أن يدلي برأسة إلى أسفل فيظل مرفوعا في الهواء ، و لضخامة أنفه شبهه بالخرطوم ، وقال (سنسمه على الخرطوم) عقوبة له ، و إدلالاً لكبريائه .

هذه هي كل القصة ، لا أكثر و لا أقل ، فالقرآن الكريم لا يعير الناس بأنسابهم ، و لا يطعن بأعراضهم و لا يشهر بهم ، و الله يستر الناس و يطلب منا الستر على الناس و يأمرنا بذلك ، و يثيبنا على ذلك ، فهل يعقل أن القرآن يقصد بالزنيم ابن الزنا ؟ أم كما قلت ؟ .

إن أقسى شتيمة وردت في القرآن الكريم ، في حق أسوأ و أشد من حارب الإسلام و آذى النبي و أهل بيته ، عمه أبي لهب : (تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله و ما كسب * سيصلى نارا ذات لهب * و امرأته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد) المسد (١-٥) . هي : لعنت يداه ، أو كسرت يداه ، وهي : تحمل الحطب ، وفي جيدها حبل ، فقط . هذا هو خلق القرآن ، و ليس غير ذلك .

أما سبب تركهم لكل هذه المعاني، و تمسكهم بالقول أن الزنيم: هو الدعي ابن البغاء المنسب إلى قوم و ليس منهم، فلسببين :

الأول : هو الطعن على هذه الأمة في أعز شيء ، و أجل شيء ، و أهم شيء تعتز به ، في عرضها .

فالآمة العربية هي الأمة الوحيدة في العالم التي تعتز بأنسابها ، ونحن الأمة الوحيدة في العالم التي تذبح ابنتها إذا زنت ، ومنا أخذ المسلمون هذه الخصيصة ، كما يقول الدكتور أحمد الكبيسي [١].

ولهذا السبب كانوا يئدون بناتهم ، ولهذا السبب أيضا قامت حرب ذي قار مع الفرس المجوس .

فماذا تتوقع ممن يبيحون المتعة ، و يتعاطونها ، ويدعون إليها أتتوقع منهم أن يقولوا في حق هذه الأمة غير ذلك ؟ وماذا تراهم يفعلون إذا وجدوا فرصة للطعن فيها .

أما السبب الأخر في القول بالزنيم هو ابن الزنا و الدعي و منسوب إلى القوم و ليس منهم وهو الوليد بن المغيرة المخزومي : فلأن الوليد هذا هو والد سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه و أرضاه ، سيف الله المسلول ، لا يكتفون بالطعن بالوليد و إنما يتعدونه إلى سيدنا خالد كما فعلوا مع سيدنا عمرو بن العاص ويأتون بحديث يخرجون فيه سيدنا خالد من الملة، ومن الجنة، ويدخلونه في النار، هو و أبناؤه (لا يدخل الجنة ابن الزنا و لا ولده و لا ولد ولده) .

[١] من محاضرات الدكتور أحمد الكبيسي في تلفاز أبي ظبي .

أتلاحظون أين يريدون الوصول ؟ إلى رموز هذه الأمة ، لتلويثها ، و الطعن فيها ، و الأساة إليها ، و لكن من يطعن برسول الله ﷺ و بأمنا عائشة ، و بأبي بكر ، و بعمر ، و بعثمان ، رضي الله عنهم جميعاً ، أيتهيب من الطعن في سيدنا خالد ، و سيدنا عمرو بن العاص ، وسيدنا معاوية ، و غيرهم ، و غيرهم ؟

إنها الشعوبية الحاقدة .

الدراسة التحليلية و التأويلية :

(إنّا أعطيناك الكوثر * فصل لربك و انحر * إن شانئك هو الأبتر)

أولا : الإعراب :

إنّا : إنّ و اسمها .

أعطيناك : فعل وفاعل ومفعول به أول ، وجملة أعطيناك خبر إن .

الكوثر : مفعول به ثان .

فصل : الفاء استئنافية ، صل : فعل أمر مبني على حذف حرف العلة .

لربك : اللام حرف جر ، ربك : اسم مجرور و الكاف : ضمير متصل مضاف إليه .

و انحر : الواو عاطفة ، انحر : فعل أمر مبني على السكون معطوف على صل .

إنّ : حرف مشبه بالفعل ، وهو حرف توكيد و نصب للمبتدأ .

شانئك : اسم إن المنصوب ، و الكاف : ضمير متصل مضاف إليه .

هو : ضمير منفصل مبتدأ ، أو ضمير فصل وقصر وحصر وتوكيد .

الأبتر: خبر للمبتدأ هو ، و الجملة الاسمية خبر لـ إنّ ، أو الأبتر: خبر إنّ .

ثانيا : التحليل و التأويل :

إنّا : أصلها إن + نا ، فحصل إدغام ، لأن الموقف موقف شدة ، وقوة ، وسرعة ، واختصار ، وعدم إطالة .

إنّ : إذا بدئ بها تجري مجرى القسم كما يقول النحاة ، والموقف موقف عطاء وتأكيد على العطاء .

نا : تدل على الجماعة ، وهنا استعملت للتفخيم ، و التعظيم ، و الموقف يتطلب ذلك .

لم يستخدم القرآن الكريم إني أو إنني ، و إنما استخدم إنّا ، ما تأويل ذلك ؟

القرآن الكريم يستخدم إنّا و إننا و نحن في موقف العطاء و التجلي و العظمة و القوة و العزة و القدرة (إنّا نحن نزلنا الذكر و إنّا له لحافظون) الحجر (٩) ، و لا يستخدم إنّا أو إني أو إنني إلا في مجال التوحيد و الوحدانية و العبادة و العبودية، فهو الواحد الأحد الأوحد (إنني إنّا الله لا إله إلا إنّا فاعبدني و أقم الصلاة لذكري) طه (١٤). من هنا نخلص إلى أن القرآن الكريم يستخدم (نا و نحن) عندما يتكلم على الفعل، و يستخدم (إنني و إني و إنّا) عندما يتكلم على الذات .

وقال : إنّا بـ نا الدالة على الجماعة ، و نا المكونة من حرفين ، و الممتدة طويلاً في الأعالي .

وخاطب الرسول ﷺ بالكاف ، كاف الخطاب – أعطيناك – لربك – شانئك – ، تحدث عن نفسه بنا الدالة على الجماعة ، و المكونة من حرفين ، و عن الرسول بكاف الخطاب ، المكونة من حرف واحد ، ليتميز الخالق عن المخلوق ، و ليتعظم المعطي ، و يرتفع على المعطى له ، و لكن استخدام الكاف الدالة على مباشرة الخطاب للرسول ﷺ فيها من الشرف و الرفعة و العظمة و المكانة العالية و القرب من الله ، ما لا مكانة و لا رفعة ولاحظوه و لا شرف بعده .

و المشهد مشهد عطاء كثير ، فاستخدم أسلوب التفخيم و التعظيم ، ليتناسب مع عظمة المعطي ، و عظمة العطية ، و عظمة المعطى إليه .

أعطيناك : قالها بالفعلية ، و الفعل يدل على الحدث و الحدوث و التجدد ، و الاسم يدل على الثبوت [1] وجاء خبر إن الجملة المؤولة (معطوك) فدلت الجملة على الفعلية و الاسمية ، أي إن عطاءنا متجدد و متغير و دائم و مستمر ، وقالها بالفعل الماضي ليقول : إنّا أعطيناك في الماضي ، و نعطيك الآن في الحاضر ، و سنعطيك في المستقبل ، و أعطيناك بالفعلية ، و معطوك بالاسمية .

قال أعطيناك و لم يقل آتيناك ، أو وهبنا لك ، ما تأويل ذلك ؟ :

الجواب : عند عودتي إلى القرآن الكريم وجدت انه استخدم أتى ومشتقاته بـ ٥٤٠ خمسمئة و أربعين أية ، في حين استخدم أعطى و مشتقاته بـ ١٤ أربع عشرة أية فقط ، وهذا ما أوقع الشيخ السيوطي ومن بعده الدكتور طالب الزوبعي بالوهم كما أظن حين عد الإيتاء أقوى من الإعطاء ، و الإيتاء أعظم [2] .

فحين عودتي إلى الآيات القرآنية بالنظر و التدقيق ، وجدت أن القرآن الكريم يستخدم

أتى : في أمر محدد ، أو بطلب أحياناً ، أو بأمر ، أو بسؤال ، يقول تعالى (أتى أمر الله) النحل (١) ، (فأتت به قومها تحمله) مريم(٢٧) ، (حتى أتانا اليقين) المدثر (٤٧) ، (أ ن يأتي بالفتح) المائدة(٥٢) ، (يأت بصيرا) يوسف (٩٣) ، (لولا يأتينا بآية) طه (١٣٣) ، (ائتوني بأخ لكم) يوسف (٥٩) ، (خذوا ما آتيناكم بقوة) الأعراف (١٧) (أوتيت سؤلك يا موسى) طه (٣٦) ، و الشواهد كثيرة جدا .

وهب : وردت في (٢١) واحد وعشرين موضعاً ، و استخدمها القرآن في أربعة أشياء :

١. في الذرية : (يهب لمن يشاء إنّاثاً و يهب لمن يشاء الذكور) الشورى (٤٩) .
٢. في الرحمة : (وهب لنا من لدنك رحمة) آل عمران (٨) .

---

[1] انظر التعبير القرآني ص ٢٤ .

[2] الإتقان في علوم القرآن ج ٢ ص ٣٠٩ ، و انظر ظاهرة الترادف د . طالب الزوبعي ص ٢١-٢٢ .

٣. في الحكم : (رب هب لي حكماً و ألحقني بالصالحين) الشعراء (٨٣) .

٤. في الملك : (قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) ص (٣٥) .

أعطى : ورد في القرآن الكريم بـ ١٤ أربعة عشر موضعاً كما أسلفت ، وفي ثلاثة أشياء : في العطاء غير المحدود ، وبلا طلب ، و لأكثر من شيء : (أعطى كل شيء خلقه) طه (٥٠) ، (ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيماً فأوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى) الضحى (٤-٨) ، (عطاء غير مجذوذ) هود (١٠٨) ، (عطاءً حسابا) النبأ (٣٦) ، و يتضح الأمر بصورة جلية في هذه الآيات : (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب * و الشياطين كل بناء و غواص * و آخرين مقرنين في الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب) ص (٣٦-٣٩) .

فالإعطاء : يستخدم كما تبين بالعطاء غير المحدود ، و غير المحسوب ، و المفتوح ، و المطلق ، و بكل شيء ، و من هنا يتبين لنا سر استخدام الفعل المتعدي أعطى دون أتى أو وهب .

الكوثر : كوثر : على وزن فوعل ، من أوزان المبالغة .

و العربية تستخدم في العد الرقم واحد للمفرد ، و اثنين للمثنى و أحياناً للجمع ، و ثلاثة فما فوق للجمع ، و تستخدم للأعداد التي يصعب عدها و حصرها كلمة : كثير ، على وزن فعيل فإذا أردت أن تجمع كثير كانت الصيغة كوثر ، فكوثر هي صيغة جمع الجمع ، و المبالغة في الجمع ، وهذه الصيغة تعني أقصى درجات الكثرة ، و تعني المبالغة بالكثرة بما لا حصر له و لا عد له و لا طرف و لا حد .

و الكوثر : وصف لموصوف محذوف وهذا الحذف كما يسميه الدكتور فاضل السامرائي : الحذف على سبيل التوسع في المعنى [١] ، فمن قال الكوثر هو النهر أو أي واحد مما ذكر سابقاً من أقوال في الكوثر ، فقد ضيق المسألة كثيراً ، من قال بالذرية فقد ضيق المسألة إن لم يكن جانبه الصواب ، ومع حبي لآل البيت وذرية آل البيت إلا أنني أقول : إن القرآن الكريم لم يستخدم العطاء للذرية وإنما استخدم وهب ويهب كما أسلفنا قال : (هب لي من لدنك ذرية) آل عمران (٣٨) ، وقال : (لأهب لك غلاماً زكيا) مريم (١٩) ، وقال : (فهب لي من لدنك وليا) مريم (٥) ، وقال : (ربي هب لي من الصالحين)الصافات (١٠٠) ، وقال ، (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) الفرقان (٧٤) .

و أما تفسير القرآن و تأويل الآيات على الهوى ، و تحميل الألفاظ ما لا تحتمل ، و بناء أحكام ما انزل الله بها من سلطان ، و التنفيس عن أحقاد دفينة ، وعقد و أمراض في النفوس ، فهذا ما لا يرضاه الله ، ولا آل بيته ، ولا يقبل به متعلم باحث عن الحقيقة الحقة .

[١] من محاضرات د . فاضل السامرائي التي ألقاها على طلبة الدكتوراه ١٩٩٥-١٩٩٦ م .

و الحقيقة هنا هي أن الكوثر يعني كل ما ذكر و زيادة ، فهو النهر ، وهو الذرية ، وهو كثرة الأصحاب ، و الإسلام ، و الإيمان ، و الشفاعة ، و الشرف ، و الخير الكثير الذي لا حدود له و لا ينتهي أبدا .

وهو كل ما ذكر وزيادة ، وهو كل ما لم يذكر و زيادة .

وملاحظة أخيرة في استخدام الحروف نفسها (الكاف – الواو – الثاء – الراء) .

ماذا نلمس فيها ؟ إننا نلمس في لفظها معاني السعة ، و الطول ، و الامتداد ، و الكثرة ، و الثراء .

فإذا أضفت إليها (ألـ) التعريف الدالة على الاستغراق ، و الشمول ، و السعة ، فانك ستتيه في عالم من العطاء لا حد له و لا طرف .

فصل لربك و انحر :

الفاء : للاستئناف ، و الفاء لمباشرة الصلاة بلا مهلة [٢]، أو تأخير ، أو إبطاء .

والاستئناف هنا يعني استئناف الصلاة ، و الاستمرار فيها ، و هذا دليل على إنها كانت موجودة و اعترضها عارض ، وهو وفاة ابنه ﷺ ، وهذا الشنآن الذي أساء إليه و آله و أحزنه و اشغل قلبه عنها ، فجاء الرد سريعاً مباشراً : إنّا أعطيناك ، فصل ، أي استأنف صلاتك ، و استمر بها ، و لا تكترث بما يقولون ، و انظر ماذا سيحل بهم .

صلّ : قالها بالأمر ، و الحذف ، لأن الوقت ضيق ، و المجال لا يسمح بالإبطاء بالصلاة ، أو التردد ، أو التأخير ، أو الالتهاء ، أو الانشغال عنها بسواها ، أيا يكن ذلك الأمر .

وقال : صلّ ، و لم يقل : اذكر ، أو اشكر ، لأن الصلاة جامعة لكل أنواع الذكر ، و كل أنواع الشكر ، و الصلاة هي خير ما يؤديه الإنسان لربه من عبادات ، و هي أسهل العبادات ، و أيسرها على الإنسان وهي أقصر الطرق ، و أقربها إلى الله (أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد) .

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي [١] : (الصلاة مخ العبادة ، وهي منتهى خضوع العابد للمعبود ، قلباً وقالباً أما قلباً : ففي أنه آمن بأنه هو الرب و المتصرف في كل شيء ، و أما قالباً : ففي الحركات و السكنات في الصلاة ، و نهاية الخضوع أن يضع الإنسان أشرف شيء فيه عند أقل شيء في موطئ أقدامه ، أن يضع جبهته على الأرض ، و لذلك فرضت الصلاة بعد أن صعد رسول الله ﷺ في المعراج ، و كلم ربه ، و أصبح في مقام الحضرة ، و جاء لأمته من جنس ما نال ، فمن أراد أن يكون في القرب و الحضرة ، فليصل ، وليسجد (واسجد و اقترب) العلق (١٩) ، وفيها اجتماع لكل التكاليف من أولها إلى أخرها (الشهادة ، و الصوم ، والزكاة ، و الحج ، إضافة إلى الصلاة) ، و الصلاة جاءت بلا واسطة لأنها تأخذ بيدك إلى حضرة ربك رأسا و لذلك كانت الركن الذي لا يسقط أبدا) .

---

[٢] راجع معاني النحو ج ٣ ص ٥٢٥ ، الكتاب ج ٢ ص ٣٠٤ ، المقتضب ج ١ ص ١٠ ، مغني اللبيب ج ١ ص ١٦١–١٦٢ ، الجني الداني حرف الفاء .

[١] المختار من تفسير القرآن ص ٨٠ .

لربك : اللام للإلصاق أو الإلزاق أو الاتصال ، جاء في معاني النحو[٢] : (اللام للاختصاص إما بالملكية أو بغيرها ، و ذكر سيبويه أن معناها الملك و الاستحقاق ، وفصل المتأخرون فذكروا لها معاني ترجع أكثرها إلى الاختصاص أو الاستحقاق أو الملك و شبه الملك و التمليك و شبه التمليك ، و كلها تفيد الاختصاص) .

قال : لربك ، و لم يقل : إلى ربك أو حتى ربك ، ما تأويل ذلك ؟

الجواب : اللام : للقرب ، و لشدة القرب ، و إلى : للبعد ، وحتى : لأقصى البعد ، أو لانتهاء الغاية .

يقول الكرماني في البرهان ٣: (إلى متصل بأخر الكلام ، و دال على الأنتهاء ، و اللام للأول الكلام و دال على الصلة) .

فالصلاة هي الجسر الواصل بين العبد وربه ، فبمجرد وقوفك على سجادة الصلاة ، فقد امتد جسر من الأرض إلى السماء بينك و بين ربك ، و اصبح هناك اتصال تام وربط و إلصاق و الزاق و اختصاص و استحقاق و ملك و مالك و مليك و مملوك متصل بالملكوت الأعلى ، حتى تنتهي و تفرغ من صلاتك .

ربك : الرب : هو المالك ، و المربي ، و السيد ٤.

قال : لربك ، و لم يقل : لإلهك ، أو لخالقك ، ما تأويل ذلك ؟ :

الجواب : لأن الربوبية هي الفارق بين المشركين ، و بين رسول الله ﷺ ، و لم يرد الله جل جلاله أن يجمع بينهم و بين رسول الله في شيء ، فلو قال : لإلهك ، فانهم يقولون بـ بالإله : (و الذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) الزمر (٣) .

ولو قال : لخالقك ، فقد يتساوى معهم في الخلق (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) الزمر(٦٢).

و إنما قال بالربوبية : لأن لهم أربابا يعبدونها غير رب محمد ﷺ ، هم يعبدون الأصنام ، و الأوثان ، و أنت تعبد ربك الواحد الأحد . قال شحنه بن خلف الجرهمي – و كان يتمسك بدين الحنيفية – مخاطبا عمرو بن لحي أمير مكة ، عندما أكثر من إقامة الأوثان عند الكعبة ١:

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة **** شتى بمكة حول البيت أنصابا

وكان للبيت رب واحد أبدا **** فقد جعلت لهم في الناس أربابا

و لم يقل لله : لأن الله يعني البعد و التجلي و التأله و الكبر و العظمة و يعني القوة و العزة و القدرة .

فقال بالربوبية : لأنها تعني الحنان و المحبة و العطف و الألفة و التربية و الرعاية و العناية و القرب و الالتصاق ، و الموقف هو موقف محبة و عطف و ألفة و رعاية و عناية و قرب و التصاق .

---

[٢] معاني النحو ج ٣ ص ٦١ .

[٣] البرهان ص ١٥٤ ، و ينظر درة التنزيل ص ٢٠٩ ، و ملاك التأويل ج ٢ ص ٧٩١ .

[٤] لسان العرب مج ١ مادة (ربب) ص ٤٨٠ .

[١] التطور الدلالي بين لغة الشعر و لغة القرآن الكريم ص ١٥٦ .

و انحر : قال و انحر ، و لم يقل : و اذبح أو و ضحّ ، ما تأويل ذلك ؟

الجواب و الله اعلم : لأن المقصود هنا ليس الأضحية ، أو الهدي ، كما فسر ذلك بعضهم ، و السبب كما أرى واضح جداً ، وهو أن الموقف ليس موقف تشريع . يقولون : كانوا يذبحون و يصلون ، فجاء الأمر بالصلاة ثم الذبح . الأمر كما أرى بعيد عن ذلك تماما ، لثلاثة أسباب :

أولها : أن تشريع الأضحية و النحر جاء في السنة الثانية للهجرة ، وهذه السورة مكية .

وثانيها : استخدام حرف الواو ، ولو أراد الترتيب لاستخدم الفاء ، أو ثم ، لأن الواو لا تدل على الترتيب ، جاء في معاني النحو [٢] : (الواو هي لمطلق الجمع ، فإذا قلت : حضر محمد و خليل ، فليس فيه دلالة على أن محمدا حضر قبل خليل ، فقد يكون حضر قبله ، ويحتمل انه حضر بعده ، كما يحتمل انهما حضرا معاً)

يقول تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً و الذي أوحينا إليك و ما وصينا به إبراهيم و موسى و عيسى أن أقيموا الدين و لا تتفرقوا فيه) الشورى (١٣) ، فبدأ بنوح ثم انتقل إلى محمد ثم عاد إلى إبراهيم دون ترتيب مستخدما الواو ، و الشواهد كثيرة جداً .

ثالثها : إن القرآن الكريم استخدم كلمة انحر و لم يستخدم اذبح ، لماذا ؟

نحن نعلم أن الاستخدام القرآني مقصود في كل كلمة و كل حرف ، بل في كل حركة و سكنه .

فقد استخدم الذبح للإنسان (قال يا بني إنّي أرى في المنام إنّي أذبحك) الصافات (١٠٢) ، و للبقر (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) البقرة (٦٧) ،و للهدي و الفداء استخدم الذبح أيضا (وفديناه بذبح عظيم) الصافات (١٠٧) و لم يستخدم القرآن الكريم انحر إلا في هذا الموضع في القرآن الكريم كله، لأن النحر لا يكون إلا للإبل فكل الحيوانات والطيور تذبح من أعلى الرقبة، إلا الإبل فإنها تنحر من أسفل الرقبة و أعلى الصدر أو النحر، فقالوا بالذبح للبقر والغنم، وبالنحر للإبل.

و لهذا الاستخدام دلالته البعيدة ، فالمطلوب من الرسول ﷺ أن ينحر الإبل ، و سمان الإبل ، و يولم ، و يقيم الأفراح بدل الحزن ، لأنه أعطي ما لم يعطه أحد من العالمين .

ودلالة أخرى : هي سعة ذات يد الرسول ﷺ فلم يكن الرسول فقيرا ، جائعا ، يبحث عن لقمة الخبز ، كما يصوره بعضهم من هواة الفقر و الجوع ، و الداعون إلى الفقر و الجوع ، و إنما كان الرسول ﷺ غنيا ، و ثريا ، بل من أغنى أغنياء مكة و أثراهم ، بنص القرآن الكريم (ألم يجدك يتيماً فأوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلا فأغنى) الضحى (٦-٨) . ألم يكن جده عبد المطلب صاحب الإبل ؟ ألم تكن زوجه خديجة رضي الله عنها من أثرى أثرياء

[٢] معاني النحو ج ٣ ص ٢١٠ .

مكة ؟ و لكن المسالة أنه كان يصرف ماله على الدعوة ، هو و كثير من الصحابة الأثرياء ، و كان يعيش حياة الناس الفقراء ، و كان يتشظف و يخشوشن و يجوع ، ليس فقرا وحاجة ، و إنما مساواة للناس ، و العيش كما يعيشون .

هل كان الخليفة عمر بن الخطاب فقيراً و لا يملك شيئا عندما قال لبطنه (قرقري أو لا تقرقري فانك لن تذوقي السمن قبل أن تذوقه أمة محمد) كان يستطيع أن يشتري السمن كل السمن و يأكل السمن و اللحم و هو المالك لبيت مال المسلمين كله ، و لكنها الأمانة على أموال المسلمين ، و المساواة مع الرعية .

إنّ شانئك هو الأبتر:

إنّ : كما بدأ العطاء بـ إن التوكيدية الجارية مجرى القسم كذلك بدأ البتراء بـ إن التوكيدية الجارية مجرى القسم أيضا ، هناك عطاء كثير لا حد له و لا طرف ، وهنا بتر و إزالة من الجذور ، بنفس الحدة و الدرجة و القوة و الكثرة، هناك تأكيد و قسم على العطاء، وهنا تأكيد و قسم على البتر، عطاؤنا نافذ و مؤكد، و بترنا نافذ و مؤكد، نعطي لك كل شيء، و نبتر شانئك من كل شيء ، و عن كل شيء .

شانئك : أي مبغضك ، الذي يشني عليك الأخبار كما تقول العامة ، و يتقول عليك و يسخر منك و يشتمك و يسيء إليك ، سنبتره من جذوره .

و لكن من هو هذا الشانئ ؟ هل هو (كما يقول عذاب الحمش وهو أحد دعاة التشيع و يدعي انتسابه لآل البيت) كل من شنأ على الرسول ﷺ قبل الإسلام ، و ظل البتر ملاحقاً له و ملازماً له حتى بعد إسلامه ويذكر أسماء معينة من بني أمية كسيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه و غيره ؟ أم هو الذي شنأ على الرسول ﷺ قبل الإسلام ، ورفع البتر عنه بعد إسلامه كما رد عليه (الدكتور رشيد العبيدي) ؟

أم هناك كلام أخر ؟

ما يحل هذا الأشكال ، و يحسمه و ينهيه الاحتكام إلى اللغة ، إلى صيغها و ألفاظها :

شانئ : على وزن فاعل ، صيغة اسم فاعل ، و اسم الفاعل كما جاء في معاني الأبنية ١(يقع وسطاً بين الفعل والصفة المشبهة، فالفعل يدل على الحدوث و التجدد، و الصفة المشبهة تدل على الثبات و الدوام أما اسم الفاعل فهو أدوم وأثبت من الفعل، و لكنه لا يرقى إلى ثبوت الصفة المشبهة، فإن كلمة (قائم) أثبت و أدوم من الفعل (قام) أو (يقوم) و لكن ليس ثبوتهما مثل ثبوت (طويل) أو (دميم) فانه يمكن الانفكاك عن القيام إلى الجلوس).

من هنا نستنتج أن اسم الفاعل هو مرحلة بين مرحلتين ، يحمل معنى الفعلية و الاسمية ، وهو متأرجح بينهما فأما أن يزول حدثه و ينتهي فيكون فعلاً مثل بقية الأفعال ، و إما أن يتحول إلى الثبات و الديمومة و الاستقرار ، فيكون اسما مثل بقية الأسماء ، و دليلنا على ذلك القرآن الكريم ، فاستخدام القرآن الكريم لاسم الفاعل استخدام

[1] معاني الأبنية ص ٥٩ .

عظيم و جميل و مثير و معجز ، و سأستشهد بآيتين متشابهتين وردت فيهما كلمة واحدة على صيغة اسم الفاعل وهي (ساجدين) .

قال تعالى في سورة الأعراف : (وجاء السحرة فرعون قالوا إنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين * قال نعم و إنكم لمن المقربين * قالوا يا موسى إما أن تلقي و إما أن نكون نحن الملقين * قال القوا فلما القوا سحروا أعين الناس و استرهبوهم وجاءوا بسحر عظيم * و أوحينا إلى موسى أن الق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون * فوقع الحق و بطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك و انقلبوا صاغرين * و ألقي السحرة ساجدين * قالوا أمنا برب العالمين * رب موسى و هارون * قال فرعون آمنتم به قبل أن أذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم و أرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين * قالوا إنّا إلى ربنا منقلبون) (١١٣-١٢٥).

وقال في سورة الشعراء :

(فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين * قال نعم و إنكم إذن لمن المقربين * قال لهم موسى ألقوا ما انتم ملقون * فألقوا حبالهم و عصيهم وقالوا بعزة فرعون إنّا لنحن الغالبون * فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون * فألقي السحرة ساجدين * قالوا أمنا برب العالمين * رب موسى و هارون * قال أمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم و أرجلكم من خلاف و لأصلبنكم أجمعين * قالوا لا ضير إنّا إلى ربنا منقلبون) (٤١-٥٠) .

فلما كان اسم الفاعل يدل على الحدث و الحدوث و فاعله ، وهو أدوم من الفعل و أقل من الاسم ثبوتا ، فقد استخدمه القرآن الكريم بكثرة في هذا المشهد الرهيب المثير المتحرك المليء بالأحداث ، في الأعراف (الغالبين – الملقين – صاغرين – ساجدين – منقلبون) ، في الشعراء (الغالبين – ملقون – الغالبون – ساجدين – منقلبون) لماذا ؟ لأن المشهد يتطلب ذلك وهو مشهد مثير متحرك مضطرب متغير ، فيه حدث وحدوث و أحداث و مشاهد مثيرة و ارتباك و اضطراب و تبدل و تفاعل ، فيه إلقاء و غلب و صغار و سجود و انقلاب ، مشهد عجيب غريب مخيف مضحك مفرح محزن مرعب متغير ، فاستخدم صيغة اسم الفاعل لتتناسب مع الحدث ، فان المعركة لم تنته بعد ، و لم تنته القصة ، فالسحرة ذهلوا لهول ما رأوا وارتعبوا من هذا الثعبان المخيف الذي لقف ما يأفكون و كاد أن يلقفهم معه ، وما كان أمامهم إلا أن يسجدوا لرب موسى و هارون ، دون إرادة و دون علم مسبق ودون تخطيط ، لقد كان سجودهم بلحظته ووليد اللحظة ودون سابق تخطيط و تدبير و لذلك استخدم صيغة اسم الفاعل (منقلب ، ساجد) لترد هذه الصيغة على قول فرعون (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة) أي إنهم بيتوا هذا الأمر و اتفقوا مع موسى عليه و لكن الصيغة صيغة اسم الفاعل تدحض هذه الحجة وترد عليه بان الأمر طارئ و مفاجئ ودون تخطيط مسبق كما يدعي و لذلك استخدم القرآن كلمة (منقلب) أيضا و الانقلاب هو التغير المفاجئ دون علم أو إرادة فاستخدم صيغة (ساجد) ليدل أيضا على أن سجودهم و إيمانهم جاء مفاجئا و بلحظته دون علم و إرادة ، لم يكن

أمامهم إلا السجود ، فسجدوا ، ولم يكونوا يعرفون السجود لله أصلا و لا كيف يكون ، فاختلفوا في السجود و تباينوا فيه ، و بالغوا ، هذا وأقف و هذا قاعد وهذا منبطح على بطنه وذاك مستلق على ظهره و لذلك عندما صور القرآن حركة سجودهم في سورة طه استخدم صيغة المبالغة " سجدا " (فالقي السحرة سجدا) طه (٧٠) . و استخدم صيغة (ساجدين) ليقول لك : إن إيمانهم طارئ و مفاجئ و غير مستقر ، وهو مرحلة بين مرحلتين ، فإما أن يثبت و يستقر و يتحمل غضب وعذاب فرعون الشديد ، و إما أن يزول الإيمان و السجود ويعود صاحبه إلى الكفر و الشرك خوفا من عذاب فرعون وطمعا في ثوابه ، وهذا ما حصل ، فبعض السحرة ثبت إيمانه و تحول من صيغة اسم الفاعل إلى الاسمية و الصفة المشبهة ، و بعضهم عاد إلى كفره بعد أن ذهب عنه ثعبان موسى المخيف وزالت عنه رهبة الموقف ورعبه .

هذا ما استقرئه من استخدام القرآن الكريم لهذه الصيغة في هذه الآيات و الله أعلم .

نستنتج من استخدام القرآن الكريم المعجز المبدع لهذه الصيغة ما يأتي : كل من شنأ على الرسول ﷺ في الجاهلية ثم أسلم و أقلع عن شنآنه و استغفر ربه و تاب إليه و اعتذر عن خطئه وأصلح ما أفسد ، فشنآنه محسوب على الفعلية ، وزائل بزوال زمنه ، فان البتر مرفوع عنه سواء أكان من بن أمية أم من غيرهم . وكل من استمر بشنآنه على الرسول ﷺ بعد إسلامه ، أو إذا لم يسلم أصلا ، فهو مبتور في الدنيا و الآخرة سواء أكان من بني أمية أم من غيرهم . و نضيف على ذلك أن كل من شنأ على الرسول ﷺ فيما مضى وكل من يشنأ على الرسول اليوم ، وكل من سيشنأ على الرسول في قابل الأيام و على مدار الزمن أيا كانت جنسيته أو عشيرته أو هويته أو مذهبه أو منصبه أو شهادته ، أو قربه من آل البيت أو بعده عنهم ، فهو مبتور مبتور مبتور في الدنيا والآخرة .

هو الأبتر: هو كما قلنا مبتدأ ، و الأبتر : الخبر ، و الجملة الاسمية (هو الأبتر) : خبر إن ، أو هو ضمير فصل وقصر و حصر ، و الأبتر خبر إن لوحده ، وفي كلتا الحالتين فانه تأكيد على حالة واحدة وهي :

إن من شنأ على الرسول ﷺ ووصفه بالبتر ، فهو عينه و نفسه وذاته و إياه و لا أحد سواه ، هو الأبتر، و لا أبتر إلا هو .

الأبتر: كما قلنا هو المبتور ، و المنقطع من كل شيء في الدنيا و الآخرة ، أما تأويل استخدام القرآن لصيغة أبتردون مبتور مثلاً ، و استخدامها معرفة بال التعريف ، فلحكمة وقصد ودلالة أسوقها و أبينها بما يأتي :

يقول الدكتور فاضل السامرائي في كتابه معاني الأبنية : (أفعل) يكون وصفا للألوان و العيوب الظاهرة من خلق أو بمنزلتها ، فالألوان نحو : (أحمر ، أزرق) ، و العيوب الظاهرة (أعور ، أخفش) ، فإن (أفعل) يدل على الثبوت و اللزوم ، كأنه خلقة في صاحبه .

قالوا : بتر محمد ، أو انبتر محمد ، بالمتعدي المبني للمجهول ، أو اللازم ، و كلها من الفعل الماضي .

فأجابهم الله تعالى بالصيغة التي تدل على الماضي و الحاضر و المستقبل ، و على الفعلية و الاسمية ،وعرفها بأل التعريف الدالة على الاستغراق ، فالبتر في كل شيء ، و يغطي كل شيء فيه و يستغرق منه كل شيء ، وحصرها و

أكدها و قصرها بضمير الفصل (هو) .

فأي أسلوب أشد من هذا ، و أي بتر أبتر من هذا البتر .

الدراسة الموسيقية :

إنّا أعطينـــــاك الكـــــــوثر

فصـــلّ لربـــــك و انحـــــر

إنّ شانئـــــك هــو الأبتـــــر

جاءت الموسيقى القرآنية في الآية الأولى ، و الآية الثالثة ، متطابقة تماما ، و في درجة واحدة من الحدة ، و بنفس النغمة و الوزن و الإيقاع :

إنّا أعطيناك الكوثر : فعلن فعلن فعلن فعلن

إنّ شانئك هو الأبتر : فعلن فعلن فعلن فعلن

هذا الوزن هو من البحر المتدارك ، و سر التسمية يكشف ما في هذا الوزن من معنى ، فهو يدركه أو أدركه أو أوشك أن يمسك به ، و تدارك الألفاظ و تتابعها يدل على ذلك .

إن تناسب ، و تناسق ، و تساوق هذا الإيقاع و الوزن في الآيتين له دلالة عظيمة جدا ، فكأنه يقول :

في نفس اللحظة التي قررنا فيها إعطاءك العطاء اللامحدود ، قررنا أيضا بتر شانئك بنفس القدرة و الحدة والقوة .

عطاء كثير لا حدود له من جهة ، و بتر من الجذور ، و إزالة كل اثر من جهة أخرى .

إن هذه النغمة الموسيقية في الآيتين تسمع و ترى فيها قرارا و مرسوما وفرمانا و أمرا صادرا من أعلى جهة مسؤولة و أرفع جهة و أقوى جهة و أجل جهة و أعز جهة، من الله عز وجل، بالعطاء و البتر، و البتر والعطاء في آنٍ معاً، و بنفس اللحظة و القوة .

في الآية الثانية الأمر يختلف كثيرا

فصل لربك و انحر : فعولن فعولن فعولن

تقل التفعيلات ، و يطول الوزن ، و يتغير البحر .

تقل الإيقاعات ، و تهدأ ، و يطول النفس ، و يمتد .

ينتقل من المتدارك إلى المتقارب ، حيث تبتعد المسافة و تتسع ، أصبح قربه ، و قريبا منه ، بعد أن كان يطلبه و يجتهد في إدراكه ، ويوشك على إدراكه و الإمساك به .

فعلن ، تصبح : فعولن ، حيث الواو و ما فيها من إخراج نفس ، و طول نفس ، و امتداده .

انتقال من المتدارك إلى المتقارب ، ومن التفعيلات الأربع ، و الشطر الكامل للبحر ، إلى مجزوء المتقارب في آيتين

فقط ، للتخلص من التشبه بالشعر ، و الابتعاد عن شبهته ، و عن الاتصاف به ، و للتميز بالنبرة القرآنية ، والفاصلة القرآنية ، و النغمة القرآنية ، و الموسيقى القرآنية .

ولكن ما تأويل هذا الانتقال ؟ و هل هناك فرق في المعنى ؟

الجواب: نعم هناك فرق كبير، ففي الوقت الذي كانت فيه النغمة قوية و شديدة وقاطعة و آمره ومقررة ومنفذة في الآيتين الأولى و الثالثة، فقد اختلفت كثيرا في الآية الثانية، لاختلاف المعنى و المشهد و الجو العام و الحدث.

فصل : هنا أمر بالصلاة ، و الصلاة تحتاج إلى هدوء وراحة و طمأنينة ، ووضؤ وركوع وسجود و قراءة و تلاوة و دعاء و تلطف و رقة وعذوبة .

لربك : الربوبية ، حيث التربية والرعاية والعناية والحب والعطف والحنان والهدوء والسكينة .

و انحر : حيث النحر و الولائم و الأفراح ، والذبح و السلخ و النفخ ، والأولام و الدعوة و الترحيب والتهليل وإكرام الضيوف ، و كلها تحتاج إلى راحة و هدوء و محبة و فرح و سعادة .

ذاك جو خاص، و مشهد خاص، و موضوع آخر، وقضية أخرى، وهذا مشهد آخر وقضية أخرى وجو آخر .

و الرسم القرآني يصور كل مشهد بإبداع يعجز عنه البشر .

هذه هي سورة الكوثر ، وهذا هو القرآن الكريم كله ، إعجاز و إبداع إلهي عظيم ، فتبارك الله ، و جل الله ، و الحمد لله .

اللهم ألهمنا السداد و الرشاد ، و الصواب في القول و العمل

اللهم علمنا ما ينفعنا ، و انفعنا بما علمتنا ، وزدنا علمـــــاً

و صل اللهم على سيدنا محمد و على اله و صحبه و ســـــلم

و أخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المصادر و المراجع

١- القرآن الكريم .

٢- الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، ت ٩١١هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر ١٩٦٧م .

٣- البرهان في توجيه متشابه القرآن: حمزة بن نصر الكرماني، ت نحو ٥٠٥هـ، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

٤- التطور الدلالي بين لغة الشعر و لغة القرآن الكريم : د . عودة خليل أبو عودة ، الأردن عمان .

٥- التعبير القرآني : د . فاضل السامرائي ، جامعة بغداد ١٩٨٩م .

٦- تفسير القرآن العظيم: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، ت ٧٧٤هـ، دار الندى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

٨- التفسير الكبير ، مفاتيح الغيب : فخر الدين الرازي ، ت ٦٠٦هـ ، المطبعة البهية ، مصر ١٣٥٢هـ .

٩- التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : د . وهبة الزحيلي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت - لبنان ١٤١١هـ ١٩٩١م .

١٠- التفسير الواضح : د . محمد محمود حجازي ، دار الجيل ، بيروت – ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م .

١١- الجامع لأحكام القرآن : محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي – دار إحياء التراث العربي –بيروت – لبنان – ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .

١٢- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري - ت ٣١٠هـ – مطبعة البابي الحلبي – مصر – ١٩٥٤م .

١٣- الجنى الداني في حروف المعاني : حسن بن قاسم المرادي - ت ٧٤٩هـ – تحقيق د . طه محسن – مؤسسة الكتاب – الموصل – ١٩٧٤م .

١٤- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز : عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي – ت ٤٢٠ هـ - دار الكتب العلمية- ط١ – بيروت – ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م .

١٥- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي – ت ١٢٧٠هـ دار الفكر – بيروت – لبنان – ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م .

١٦- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : عبد الله بن عقيل – ت ٧٦٩هـ – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – ط٢ مصر (د . ت) .

١٧- صفوة التفاسير : محمد علي الصابوني – دار الجيل – بيروت – ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م .

١٨- ظاهرة الترادف في ضوء التفسير البياني للقرآن الكريم – د . طالب محمد الزوبعي – جامعة قار يونس – بنغازي – ط١ – ١٩٩٥م .

١٩- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي المعروف بالسمين- ت ٧٥٦هـ – تحقيق د. عبد السلام أحمد التونجي الحلبي – ط١ ١٩٩٥م - ليبيا – بنغازي - جمعية الدعوة الإسلامية.

٢٠- فتح القدير : محمد بن علي بن محمد الشوكاني - المكتبة العصرية – صيدا – ١٤١٧هـ ١٩٩٧م .

٢١- الكتاب : عمرو بن بشر سيبويه – ت ١٨٠هـ – طبعة بولاق – ١٣١٦هـ .

٢٢- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل – أبي القاسم جار الله محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي – دار الفكر .

٢٣- لسان العرب : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور– ت ٧١١هـ – دار صادر – بيروت –

١٣٨٨هـ ١٩٦٨م .

٢٤- المبنى و المعنى في الآيات المتشابهات في القرآن الكريم : د . عبد المجيد ياسين - تحت الطبع .

٢٥- مجمع البيان في تفسير القرآن : أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي - مؤسسة الأعلمي - بيروت - لبنان - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

٢٦- محاضرات د . أحمد الكبيسي في تلفاز بغداد و تلفاز دبي .

٢٧- محاضرات د . فاضل السامرائي ألقاها على طلبة الدكتوراه في جامعة بغداد - ١٩٩٥- ١٩٩٦م .

٢٨ - محاضرات ش . محمد متولي الشعراوي التلفازية .

٢٩- المختار من تفسير القرآن : للشيخ محمد متولي الشعراوي - بغداد .

٣٠- معاني الأبنية : د . فاضل السامرائي - جامعة الكويت - ١٤٠١هـ - ١٩٨١ م.

٣١- معاني النحو : د . فاضل السامرائي - جامعة بغداد- ١٩٩١م .

٣٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: د. محمد حسن الحمصي - ط١ - مؤسسة الإيمان - دار الرشيد - دمشق - بيروت .

٣٣- المغني اللبيب عن كلام الأعاريب : جمال الدين إبراهيم بن هشام الأنصاري - ت ٧٦١ هـ - تحقيق د . مازن المبارك و محمد علي حمد الله - ط٥ - مكتبة سيد الشهداء - قم .

٣٤- المقتضب: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد - ت ٢٨٥هـ تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة - عالم الكتب - بيروت .

٣٥- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد و التعطيل في توجيه المتشابه من آي التنزيل : أحمد بن الزبير الغرناطي ت ٧٠٨هـ تحقيق محمود كامل أحمد - دار النهضة العربية - بيروت - ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

٣٦- الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - ط١ - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.